٨٧

روايات أحلام

خارج الزمن

www.elromancia.com

مرمورية

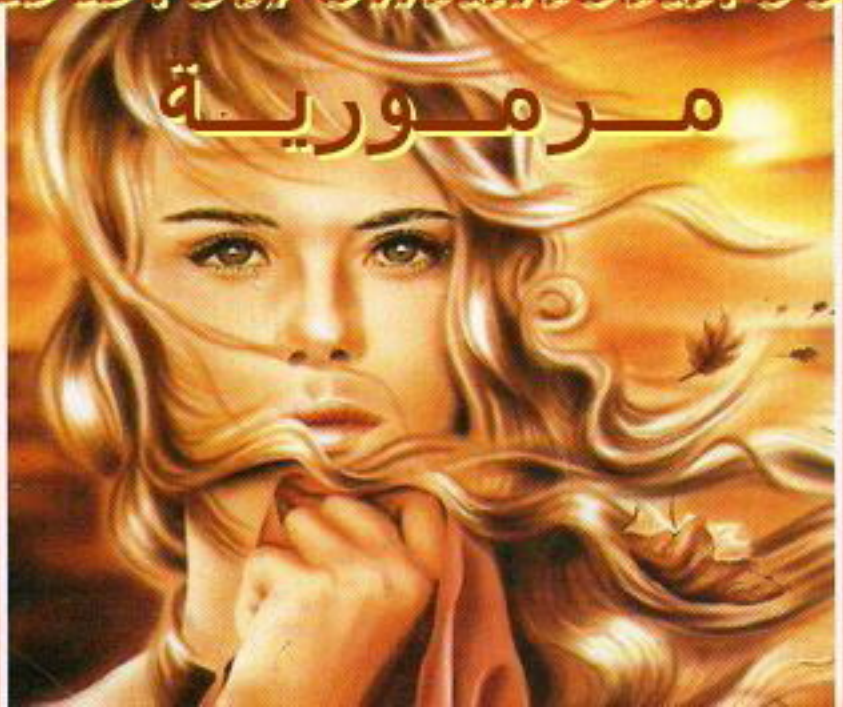

روايات أحلام

خارج الزمن

عندما وصلت مينا بمفردها إلى سانت ستيفان إحدى جزر الكاريبي، دون خطيبها، فتحت الباب لعصافير الحلم المحبوسة في داخلها حتى تنقلها بعيداً عن التفكير المؤلم بحياتها.

لم ينغص عطلتها إلا غايفنغ كلينتيس الذي كان مجرد وجوده قربها يخيفها. ولم تعرف مينا أن مصيرها سيرتبط به إلا عندما مرّا بتجربة مخيفة أوصلتهما إلى حافة الموت، لم ينقذها منها إلا هو... وهكذا وجد قلبها أنه من الطبيعي أن يسلّم مفاتيحه لهذا البطل الغريب...

لكن هذه كانت آخر اهتمامات غايفنغ على ما يبدو، فعندما فتحت مينا عينيها في المستشفى كان كل ما بقي لديها ذكرى مغامرة عنيفة خاضتها مع الغريب الذي رحل...

لبنان ١٢٠٠٠ ل.ل | الإمارات ٦ د. | مصر ٤ ج. | سوريا

١ ـ حورية بلا بحر

قعدت مينا ببطء، تدفع خصلة من شعرها الأشقر القمحي عن وجهها.. لم تكن عادة تتركه مسترسلاً وبدأت حرارة شمس الكاريبي تحول الخصلات القصيرة على جبينها إلى خصلات فضية. أما العينان الرماديتان القابعتان فوق عظمتي الوجنتين المرتفعتين فكانتا غارقتين في تفكير عميق ملؤه الانطواء على النفس. كان هذا هو تعبير مينا المعتاد وهو تعبير طالما اجتذب اهتمام الرجال المنتهزين الفرص ولكنهم كانوا يدركون أخيراً أن واجهتها الباردة أعمق من بشرتها.

تناهت إليها من الشاطىء الضحكات والقهقهات ومن المسبح خرير المياه وأصوات الأطفال المرتفعة.. ولكن، هنا وفي حدائق المجمع السياحي الفخم في «سانت ستيفان» لم يكن هناك ما يقاطعها، فأصبح هذا المكان الجميل لها وحدها.

وضعت كتابها من يدها، لتنظر إلى ساعتها فإذا موعد الغداء قريب. كان الكتاب حارساً لها من المتطفلين غير المرغوب فيهم، أكثر منه وسيلة للتسلية وفي الواقع هذه إحدى مشكلات قضاء العطل على انفراد ولكن لم يكن لديها خيار آخر إذ لم يستطع كارسون مرافقتها.

كارسون! برقت الشمس فوق الألماسة الوحيدة في الخاتم القابع في يدها. كشف الحجر الكبير قيمته، ولكن لا يمكن وصف الخاتم بالفخم الملفت للنظر. وهذا نموذجي من كارسون.. انعقد حاجباها القاتمان بعبوس: ما بالها؟ كانت حتى الآن قانعة بكارسون وبخطوبتهما.. تنهدت مفكرة.. ربما السبب جو هذه الجزيرة الاستوائية أو ربما للأمر علاقة بواقع أن معظم الضيوف من الأزواج الشبان، أو الأزواج القديمي العهد بالزواج المتحررين من عائلاتهم الكبيرة المنكبين على استعادة سحر الأيام الخوالي.. كان هناك بكل تأكيد عائلات من بين ضيوف الفندق، لكن الجو السائد في المجمع، جو تكاسل ممتعاً أساساً، الأمر الذي بدأ يؤثر في مينا وأفكارها.

إن أحد الأسباب الرئيسة لموافقتها على الزواج هو شخصيته التي يُعتمد عليها فهو لا يعيش في الخيال بل يفتقر إلى الجاذبية المفرطة.. ولكن هذا ما لم تكن تريده في الزواج.. ففي عالم النشر، حيث تعمل مساعدة خاصة لرئيس تحرير قسم القصص في مؤسسة للنشر ذائعة الصيت كانت ترى نتائج العجلة وسوء الاختيار في الزيجات. فكثيراً ما سمعت عن زوجين تبادلا حب مجنون لم يدم إلا سنة أو أشهراً.. وهذا ما لن يجري لها، فهي تريد زواجاً كزواج والديها.. والديها.. تنهدت ثانية متذكرة الحب والضحك الذي دام حتى الخامسة عشرة من عمرها... ولكن، ذلك الحب والضحك تلاشيا في الليلة التي فقدا فيها حياتهما في حادث سير جماعي على طريق عام..

بعد وفاة والديها وضعت تحت رعاية عمة أبيها مارولا اندرسلي. وكانت العمة مارولا طيبة ولكن ليس من السهل تحمل

مسؤولية فتاة عاطفية في الخامسة عشرة من عمرها، فقد كانت العمة امرأة متحفظة لا تلين، ولأنها لم تكن معتادة على الأولاد وجدت صعوبة في إظهار التعاطف العفوي الذي أغدقه عليها والداها.. فكان أن تعلمت تدريجياً الانطواء على الذات مختبئة خلف ابتسامة باردة، نتيجة الإحساس بأنها مرفوضة غير محبوبة. في النهاية اتخذت أسلوب عمتها وعمدت إلى عدم إظهار العاطفة والحب فكان ذلك سبب ابتعاد الفتيان عنها لأنهم وجدوها باردة متحفظة واتجهوا إلى فتيات عاطفيات، منطلقات وهذا ما زادها اقتناعاً بأنها تفتقر إلى الجاذبية التي يتحلى بها غيرها.

وحتى تعوّض عن هذا اتخذت لنفسها مهنة بينما فتيات قريتها الصغيرة اتخذن الزواج هدفاً، والآن وبعدما أصبحت في العشرين باتت تعتبر نفسها منيعة ضد أية عاطفة قد تسيطر على الأخريات. وكانت سعيدة بعرض كارسون الزواج بها.

اصطحبها كارسون إلى منزل عائلته لملاقاة ذويه مرتين وقد اعتبرت هذه الزيارة «فحصاً بيطرياً» فالكولونيل والسيدة كيكورد رغم لطفهما ودمائتهما كانا يفضلان رؤية ابنهما متزوجاً بفتاة من مركزهما.. ويمكنها أن تفهم السبب.. فعلى الرغم من وظيفتها التي توفر لها مدخولاً جيداً يخولها العيش في مستوى جيد إلا أنها لا تملك الصلة الإقليمية، والمناطقية، لتنال حظوة في عيني عائلة كيكورد، المتعجرفة.. فلوالد كارسون عزبة محلية قال لها كارسون إنها ستؤول إليه بطبيعة الحال، لكنه في الوقت الحاضر قانع بأن يكون شريكاً في مكتب محاسبة وهي وظيفة تؤمن له شقة فخمة في لندن، وسيارة فخمة اشتراها قبل خطوبتهما مباشرة.

ستكون الحياة مع كارسون هادئة، عادية، تسير بهدوء كماء

يصب في قناة. . ولكنها فجأة أخذت تتساءل عما إذا كانت ترغب فعلاً في هذا الأفق الضيق.

أحست بالقلق فجأة، فهبت من مكانها طلباً للسير على الشاطىء. بدت فتاة طويلة نحيلة حولها جو من البرودة يقول للجميع «ممنوع اللمس».

شاهدت مينا من خلال مجموعة النخيل المتشابكة التي تحيط بالهلال الرملي الفضي سائحين شابين كانا معها على الرحلة نفسها، وكانا في أوائل العشرين من عمرهما، يقضيان شهر عسلهما. بدت سعادتهما كقطعة رمل خشنة صغيرة تفسد سطح حياتها الأملس وتثيرها إلى درجة الاعتراف بأن كارسون والزواج سيرتبطان به، ولكنه ليس زواجاً قد يرحّب فيه والداها لو قدّر لهما البقاء على قيد الحياة.

كان الزوجان الشابان يركضان بمرح في الماء. للأسف أن كارسون يكره أن يظهر عاطفته علناً، فكيف سيكون شهر عسلهما؟ لقد اقترح عليها أن يقضياه في الغاراف لأن لوالديه صديقين يملكان ڤيلا هناك، وملعب غولف رائعاً.

أهذا حقاً ما تريده؟. . زوج يكرّس نفسه للغولف بينما تلعب هي البريدج مع زوجات أصدقائه؟

وبخت نفسها لأنها عاطفية حمقاء. . وجمعت حاجياتها استعداداً لتغيير ملابسها من أجل وجبة الغداء. . كثير من الناس لا يهتمون فهم يتناولون الغداء ببساطة مرتدين الملابس غير الرسمية. . أما مينا وبعد يوم من حرارة الشمس الاستوائية فتشعر بأنها بحاجة إلى حمام وإلى تناول الطعام في مكان هادىء وبارد. . إنها تكتسب عادة اللون البرونزي من الشمس سريعاً رغم

بياض بشرتها. ولكن من قبيل الاحتياط تعمدت أخذ الحيطة والحذر لحماية بشرتها من الاحتراق.

كان المجمع الفندقي جذاباً. . وهو عبارة عن طابق واحد مؤلف من بيوت صغيرة، يطلق عليها اسم «بانغلو» وهو معدّ لسكن عائلة واحدة. تحيط بالفندق «الجاكراندا» وتعريشات «البوغونفيلا» وشتلات الخبازي والأزهار على مختلف أنواعها. أما هي فكانت تسكن غرفة مزدوجة في الفندق نفسه إذ كان من المفروض أن ترافقها فتاة أخرى من مؤسسة النشر، ولكن الفتاة انتقلت إلى مكتب نيويورك وبدون سابق إنذار، وهكذا اضطرت مينا إلى المجيء بمفردها.

شجعها كارسون على المجيء بمفردها. . فهو مشغول جداً ويحس أنه لن يقدر على أخذ فرصة للسفر حتى موعد شهر عسلهما، وبما أنها لم تحصل منذ سنتين على إجازة لائقة، بسبب عمتها التي كانت مريضة جداً والتي اضطرت مينا إلى رعايتها في أيامها الأخيرة، مستخدمة أيام عطلتها فقد أحست بأنها فعلاً بحاجة إلى هذه الفرصة.

كان عليها حتى تصل إلى غرفتها المرور ببهو الفندق وهو بهو بارد أرضه رخامية، أثاثه من الخيزران، فيه الكثير من النباتات الخضراء. ابتسم موظف الاستقبال لها وهي تطلب المفتاح. . إن الموظفين لطيفون جميعهم وعلى أهبة الاستعداد للمساعدة. . ردت مينا الابتسامة، ثم أسرعت ترتقي الدرجات وصولاً إلى غرف النوم. .

يقضي قانون الجزيرة ألا يتألف البناء من أكثر من طابقين، وكان من الرائع أن تطل من نافذة غرفتها لتجد أن الشيء الوحيد

الذي يعيق نظرها، هو أشجار النخيل التي تلوح أمام نسيم الشاطىء.

فيما كانت تخلع ثوب سباحتها، سرّها أن تجد بأن بشرتها قد أصبحت عسلية.

تعرف أن المياه المتدفقة قد تكون أحياناً غريبة التأثير.. ولكنها اليوم كانت مؤثرة جداً، فالرذاذ البارد كان لذيذاً على بشرتها الساخنة.

وفيما كانت تهمّ بالخروج من تحت الماء، لمحت صورتها في المرآة.. فحاولت أن تتصور كارسون زوجاً لها يتشاركان معاً ما في غرفة النوم من أشياء حميمة.. لكن مخيلتها رفضت أن تكوّن صورة. تناولت فستاناً قطنياً ضيقاً من الخزانة بغضب ثم مشطت شعرها بقوة، وعقدته على مؤخرة رأسها ثم انتعلت حذاءها.

كانت غرفة الطعام أكثر ازدحاماً مما توقعت.. لقد حملت معها كتاباً احتياطاً، وأملت أن تؤمن لنفسها طاولة صغيرة بعيداً عن النوافذ الفخمة المطلة على البحر لتستطيع تناول طعامها دون أن يلاحظها سائر النزلاء.

ولكن أملها خاب حالما وطئت قدماها أرض المطعم.. فقد نادتها امرأة سمينة سوداء الشعر، لطيفة الابتسامة:

ـ مينا.. ! تعالي واجلسي معنا.

أشارت المرأة إلى أحد الكراسي العديدة المتحلقة حول المائدة التي تجلس هي وزوجها إليها ووجدت مينا أن لا خيار لديها سوى الانضمام إليهما.

كان الفندق حديثاً نسبياً، ولم يكن يستخدم من قبل شركات

السياحة لإقامة الأفواج السياحية فيه.. ولهذا لم يكن فيه سوى عشرة نزلاء أتوا معاً من المطار وهم: الأزواج الأربعة الذين يقضون عطلة ممتعة والعروسان الشابان وستافرو وبيني ومينا ورجل بدا وحيداً، كانت قد لمحته فترة وجيزة في المطار..

قالت بيني تشجعها:

ـ جربي القريدس وسلطة الأفوكادو.. إنه لذيذ..

نظرت إلى خاتم خطوبة مينا وأردفت تسأل باستغراب:

ـ أنت هنا بمفردك؟

ـ أجل.

تكره مينا الرد على أسئلة شخصية لذا سرّها أن يتحول اهتمام بيني إلى الرجل الذي دخل إلى المطعم.

كان يرتدي سروالاً أسود من الجينز وقميصاً قطنياً أسود ضيقاً.. بدا في غير محله في غرفة مكتظة برجال يرتدون قمصاناً وسراويل ملونة برّاقة، وهو إلى ذلك مختلف في أشياء أخرى. لكن مينا لم تدرك سبب اعتقادها بأن الرجل الواقف في الباب مختلف عن سائر السواح. كانت خصلات من شعره الأسود تلامس ياقة قميصه، ورموش كثيفة سوداء تخفي عينيه عن أنظار الفضوليين..

تمتمت بيني لزوجها ستافرو: «ها هو غايفنغ كليتيس، اسأله إن كان يود الانضمام إلينا».

ثم التفتت إلى مينا تسألها:

ـ أليس خارق الجاذبية؟ كنا نتحدث إليه في المقهى ليلة أمس.. آه! لم يرنا!

صاحت خائبة الأمل عندما ابتعد الرجل إلى مائدة صغيرة

بعيدة في الزاوية رغم جهود ستافرو للفت انتباهه.

كانت طريقة سيره مختلفة.. وأحست مينا بشيء من الحذر يشوب حركاته. إنه يتحرك بسرعة كبيرة وبهدوء لا يصدق بالنسبة لرجل طويل مفتول العضلات وعندما يتحرك كانت عضلاته تتحرك تحت قميصه الأسود الرقيق. ووجدت مينا نفسها تحبس أنفاسها، تتأمل قسمات وجهه الخشنة الواضحة المعالم التي لا تفضح شيئاً عن شخصيته.. إنه وجه قاس، ساخر بالنسبة لرجل في أواسط الثلاثين.

أطلقت عليه بيني صفة «خارق الجاذبية» وهي محقة في ذلك. فالرجل ينضح بإثارة لا شك فيها، ولم يكن في الغرفة امرأة لم تراقبه خلسة عندما سار فيها.. وأحست مينا بالغثيان أمام اهتمامهن واهتمامها الواضح برجل لم يهتم بأي منهن.. فهو لم يرفع عينيه عن المائدة إلا ليطلب طعامه، ولاحظت مينا أن ذراعه اليمنى منكسة على نحو مريك قليلاً. أضافت بيني بإثارة، وبلهجة من يفضي سراً:

ـ إنه هنا، للنقاهة من حادثة، إنه من الجيش.. آه. لم يقل لنا هذا، ولكننا لاحظنا ذلك من جواز سفره.

نظرت مينا إليه ثانية، مقتنعة أن بيني مخطئة إذ لا يبدو ممن يقبل انضباط الجيش وصرامته كما أنه يختلف كل الاختلاف عن الكولونيل كيكورد، والد كارسون، الذي يرى أن الشباب في هذا العصر يحتاجون إلى روح دفع صلبة.. أما هذا فيبدو منعزلاً، بل هو يتعمد إبعاد نفسه عن الآخرين.. كما أن شعره الأسود الكث لا يدل على أن له علاقة بالجيش كذلك.

رفع رأسه فجأة فضبطها على حين غرة.. راقبتها عينان

خضراوان باردتان باهتمام مدمّر، قبل أن تتحرر من شعاع اللايزر الذي كان ينطلق من عينيه.

بعد انتهاء الطعام، رافقت مينا الزوجين هولان إلى محل راحت تتأمل واجهته. وتنهدت بيني وهي تشير إلى ثوب ساحة جميل ليلكي اللون:

ـ أنظري فقط إلى هذا البيكيني..! ليت لي جسماً نحيلاً كجسمك! لماذا لا تجربينه؟ متّعي به نفسك وخطيبك.

ـ آه! لا أستطيع!

ـ بل تستطيعين. سأدخل معك، وينتظر ستاف خارجاً.

دخلت مينا إلى المحل.. قالت بيني للفتاة السمراء الجذابة التي تقدمت لخدمتهما إنهما يريدان رؤية البيكيني الذي في الواجهة.. فقالت الفتاة بصوت ناعم:

ـ إنه فرنسي.. واللون سيبدو مذهلاً مع لون شعرك. أظنه يطابق مقاسك. خلف تلك الستارة غرفة القياس.

دخلت مينا على مضض إلى الغرفة، تتمنى لو كان لديها قوة الإرادة لرفض الدخول إلى المحل أصلاً.. ولكن، لم يكن هناك مجال لرفض طلب بيني بدون أن تكون فظة وفي الواقع أحبت مينا المرأة الأكبر منها سناً، ولم ترغب في إغضابها.

بدت بشرة مينا حريرية براقة تحت نور غرفة القياس الضئيل وبدا أن لجسمها جمالاً آخّاذاً لم تكن تدرك وجوده.

ـ هل أنت جاهزة؟

خطت مترددة إلى الخارج متمنية لو كانت أقصر مما هي عليه.. أحست بأن الثوب يكشف ساقين مديدتين وتاقت إلى ما تلفهما به.

صاحت بيني بإعجاب:

- أووه.. مينا.. تبدين رائعة؟ يجب أن تشتريه! ستذهلين الجميع على الشاطىء بدون شك!

- ألا تظنين أنه.. قليلاً..

فتشت مينا عن كلمات تصف شكوكها، ولكن بيني سارعت تصرف النظر عما تريد أن تقول، قائلة بجرأة:

- إنه جميل.. ويجب أن تفتخري بقدك الرشيق يا عزيزتي لا أن تخجلي به.. انتظري حتى يراك خطيبك به.

- لا أظنه سيوافق.

دهشت لرؤية العبوس على وجه بيني.. حين ابتعدت البائعة قالت بيني لمينا بحزم:

- لك أن تقولي ان هذا ليس شأناً من شؤوني. ولكنني سأقول رأيي رغم كل شيء. هل عائلتك راضية عن خطوبتك هذه؟

انتفضت مينا! لأنها غير معتادة على أن يطرح عليها الناس أسئلة بمثل هذه الصراحة، وانزعجت من نفسها لأنها ترددت قليلاً قبل الرد ببرود:

- ليس لي عائلة.. والداي متوفيان.. لكنني أؤكد لك أن لا شيء في كارسون لا يلقى القبول.. بل الواقع أن هناك من يعتبره صيداً ثميناً.

تجاهلت بيني ارتباك مينا وتراجعها:

- لم أكن أتحدث عن الأمور الزوجية... بل عن زواجك برجل لا يقدّر قيمة جمالك.

- إن عدم شغف كارسون بالعلاقات العاطفية، لا يعني أننا لن نكون سعيدين.

هزت بيني رأسها بذهول، وكأنها لا تستطيع تصديق ما تسمع.. ثم قالت بحزن:

- آه يا عزيزتي.. أرجو أن تكوني على دراية واضحة بما ستفعلين. كانت الأمور مختلفة حين التقيت ستاف. لم يكن هناك الحرية الموجودة هذه الأيام، مع ذلك، فمنذ اللحظة الأولى، عرفت أنني أرغب فيه. كان لي صديقات مثلك، واكتشفن متأخرات أن الزواج بدون عواطف حالة جافة لا حياة فيها.. أعذريني على كلامي الصريح.. ولكنك تذكرينني كثيراً بابنتي..

- لا بأس في هذا أبداً.. أظنني كنت متوترة قليلاً.. ولكنني أعرف أنني سأكون سعيدة معه كما أنني لا أملك عواطف مشبوبة وفي الواقع...

ترددت قليلاً لأنها تكشف لأول مرة في حياتها أشياء عن نفسها لم تكشف عنها سابقاً.

سارعت بيني تقول:

- لا تقولي المزيد.. أظنني أعرف ما يجول في فكرك، مينا.. ولكن صدقيني، لا أظنك محقة.. فأنت لم تلتقي بالرجل المناسب.. وعندما يحدث هذا فستكتشفين جانباً في نفسك لم تظني أنه موجود.. وإن كان ذا عقل سليم ساعدك بسرور على اكتشاف عواطفك الحقيقية.

ارتجفت مينا، تعي فجأة أنها تقف في المحل مرتدية البيكيني.

سمعت بيني تحثها:

- اشتريه.. خذي الخطوة الأولى.

أرادت أن ترفض ولكنها وجدت نفسها تترك المحل بعد

نصف ساعة وهي حاملة الكيس الأسود المطبوع عليه اسم المحل بأحرف ذهبية، تتساءل عما دهاها بحق الله!

كان ستافرو ينتظرهما قرب لوحة الإعلانات التي يثبت عليها الفندق مواعيد الرحلات والنشاطات التي ينظمها.. وناداهما وهو يشير إلى مذكرة بخط اليد عنوانها «نزهة في غابة المطر».. قرأت مينا التفاصيل بسرعة فتبين لها أن الفندق ينظم رحلة للتنزه في غابة استوائية تبدأ من سفوح جبال الجزيرة البركانية وتدوم طوال النهار..

قال ستافرو: «ننطلق من هنا في الحادية عشرة.. نذهب في السيارات إلى الغابة، ثم نتناول الغداء قبل البدء بالمسير.. قال لي المدير إن الرحلة تستحق العناء.. فالغابة على ما يبدو تغطي ثلثي الجزيرة، ولأن الجبال البركانية شديدة الانحدار لم تزرع وظلت الغابة بكراً. إنها تمتد عدة مئات من الأميال المربعة ولا يعرف طرقاتها إلا بعض الأولاد المحليين.. وقيل لي إن أمامنا فرصة كبيرة لرؤية أنواع نادرة من الفراشات والببغاوات.

ردت بيني بصراحة:

- لا أدري إن كانت ستعجبني.. ألن يكون هناك زواحف وأفاعي؟

- يظهر أن لا.. فليس هناك أفاعي على هذه الجزيرة.

أحست مينا بإغراء شديد يدفعها إلى تسجيل اسمها للرحلة. فقد بدت لها مثيرة للاهتمام، وبعد يومين من الاستلقاء تحت أشعة الشمس، أحست أنها مستعدة لمزيد من الحركة. وبشكل خاص لأنهم لم ينظموا الكثير من الرحلات إلا تلك المتعلقة برحلات بحرية حول الجزيرة والتوقف في خلجان معزولة للسباحة وإقامة

حفلات الشاطىء.

أعلنت بحماس: «أظنني سأذهب.. فقد أعجبتني الفكرة.. متى موعدها؟»

قال ستافرو: «غداً. ما رأيك بيني؟ هل أسجّل اسمينا أيضاً؟»

- نعم، نعم وستكون رحلة نخبر الأولاد عنها كثيراً.

قال الزوج مداعباً:

- أجل.. سأتذكر أن آخذ الكاميرا معي سيستمتع الأولاد بصورة «الماما» وهي تستكشف الأدغال!

فكان أن أضاف الثلاثة أسماءهم إلى اللائحة التي لم تكن كبيرة.

سألت بيني زوجها وهي تنظر إلى اللائحة:

- آل مانفيلد هما الشابان اللذان يقضيان شهر عسل؟ ثم آل وايت وبرودفورد الأربعة الذين جاءوا معاً.. إنهم يعملون في الأزياء.. أرنولد وايت هو المصمم على ما يبدو.. آه! لقد سجل غايڤنغ كلينتيس اسمه.. الواقع أنه أول اسم في اللائحة.

قال ستافرو:

- إن أصيب بحادثة، فلا ريب أنه بحاجة إلى التمرين. لاحظت أثناء ترجلنا من الطائرة أنه يعرج قليلاً.

غايڤنغ كلينتيس! تمنت مينا لو أنها لم تقرر الذهاب. إذ كان الرجل الأسود الشعر لسبب ما يبعث إليها الاضطراب ولكنها أقنعت نفسها بأن الأمر يبدو شاذاً إن انسحبت الآن، واكتفت بالاقتناع بأنه من غير المحتمل أن يلاحظ وجودها.. ثم أخذت تتساءل لماذا تقبض هذه الفكرة نفسها.

قالت للزوجين هولاند:

ـ سأصعد لأغير ثيابي.. سأحاول فعل ما هو أكثر من التشمّس، خاصة إن لم يكن لدينا وقت غداً.

حثتها بيني: «ارتدي البيكيني الجديد.. وقد نتقابل على الشاطىء فيما بعد».

لم يكن في نية مينا حين صعدت إلى غرفتها ارتداء البيكيني الليلكي.. ولكنها لم تستطع مقاومة إخراجه من الكيس، وهي لا تزال مذهولة لأنها اشترته إذ تعرف أنها لن ترتديه أبداً.. ثم، وكأن تهوراً ما تحكّم بها ودفعها إلى الحمام حيث بدّلت ثيابها بسرعة وارتدته قبل أن تغير رأيها وقبل أن تجرؤ على تصور ردة فعل كارسون إن رآها ترتديه.

وضعت على كتفيها روب حمام أبيض، ثم تناولت كتابها وحقيبتها ونظارتها وهرعت إلى الخارج.

كانت حرارة الشمس تلفح بشرتها بقوة فوق الروب الأبيض.. وقررت مينا الابتعاد عن الشاطىء والتوجه إلى الحدائق. وكان أن وجدت مكاناً معزولاً، تحميه خمائل استوائية أزهارها الفخمة الحمراء على شكل بوق.. كانت المنشفة الكبيرة أمثل بساط للاستلقاء.. دلكت جسمها بسائل مضاد لحروق الشمس ووضعت نظارتها الشمسية والتقطت كتابها.

مرت نصف ساعة قبل أن تفقد اهتمامها بما تقرأ فأفكارها انصبت على سلوك عصفور طنّان، يدخل ويخرج من وإلى دالية نامية على جدران منازل خاصة قريبة.. وتعجبت مينا من طريقته في التنقيب بحثاً عن الطعام.

استدارت لتريح كتفيها المتشنجتين.. ولكنها انتفضت لدى رؤية بنطلون جينز أسود أمامها. فتحركت عيناها ببطء إلى الأعلى

مروراً بصدر مفتول العضلات قبل أن تستقرا على وجه ساخر مرير المزاج.

اشتدت حرارة بشرتها، التي كادت تحترق حرجاً بسبب نظرته الساخرة إليها.

قال بهدوء ساخر: «مثيرة جداً.. ولكنك خسارة في هذا المكان.. لماذا لست على الشاطىء؟»

وجدت مينا صوتها فجأة ولكنه كان مرتجفاً من شدة الغضب.

ـ ولماذا أكون على الشاطىء؟ أما السبب فهو..

أتمّ عنها جملتها بسخرية:

ـ أن تكوني وحدك؟ مفاجأة! إذن، ماذا سنفعل الآن؟ أنعرض نفسينا لموضوع إشاعات مثيرة للاهتمام.. أم..

تعثرت مينا في وقفتها بعدما شعرت بأن استلقاءها تحت قدميه كالضحية وضع غير لائق.

ردت تشدّد على رسميّة كلماتها:

ـ إن أردت أن تنفرد بنفسك سيد كلينتيس.. أقترح عليك أن تجد لنفسك مكاناً آخر..

رد يقاطعها بهدوء:

ـ يعجبني هذا المكان فهو هادىء ومنعزل.

لمعت أسنانه بابتسامة، وازداد عمق غمازتيه وهذا ما جعلها ترى ما هو عليه هذا الرجل عندما لا يكون ضجراً أو غير مكترث.

وأكمل:

ـ كوني فتاة طيبة.. أنا واثق أنك ستجدين شباناً كثراً يُبدون الإعجاب بك على الشاطىء.. لقد تجاوزت رغم جاذبيتك الانجراف وراء الرغبة عند رؤية فتاة جميلة لا ترتدي شيئاً كثيراً.

كانت عينا مينا أثناء حديثه تتسعان بالتدريج ثم لم يلبث أن تصلب جسدها حتى أصبحت تنظر إليه بغضب متجمد، تكاد معه تفقد القدرة على الكلام المتصاعد في داخلها.. أخيراً، ردت وهي تصرّ على أسنانها:

ـ لا أدري إلى ماذا تشير.. ولكن إن كنت تحاول الإشارة إلى أنني جئت إلى هذا المكان لأنني أعرف أنك تقصده فأنت مخطىء كثيراً. أترى..

رفعت يدها تفتح أصابعها ثم أردفت بعذوبة:

ـ لست بحاجة إلى السعي وراء الرجال.. فلقد اصطدت أحدهم.

عرفت أن كلامها سوقي ولكنها غير عابئة إلا بمحو ذلك التعبير الذي يقول بصراحة إنها تعمدت المجيء إلى هذا الجزء من الحدائق، مرتدية البيكيني على أمل جذب اهتمامه. أردفت، متبجحة بأناقة:

ـ لو عرفت أنك تقصد هذا المكان لبذلت جهدي لتجنب المكان.

ضاقت عيناه وهما تتأملان الخاتم في يدها:

ـ أكنت فعلت هذا حقاً؟ هل أنت واثقة؟ من المعروف أن الفتيات يفعلن أشياء غريبة حين يحرمن من وجود الخطيب.

سألت ساخرة: «أنت خبير في العلاقات العابرة مع خطيبات غيرك، أليس كذلك سيد كلينتيس؟ حسناً.. اطمئن بالاً فلست محرومة، أو عديمة الأخلاق بحيث أزعجك».

رد يؤكد لها بعذوبة فاجأتها:

ـ لن يكون هناك إزعاج..

بدت نظراته وقحة وهي تمر على طول جسمها، ثم أضاف ليزيد من غضبها:

ـ في الواقع أفضل أن أصطاد بنفسي.. لذلك كوني لطيفة يا فتاتي الصغيرة، والعبي بعيداً مع شخص آخر.. هه؟

حين وصلت مينا إلى غرفتها، أطلقت العنان لغضبها.. فخلعت الثوب الذي كان السبب في إهانات غايڤنغ كلينتيس الشنيعة ورمته على الأرض.. كيف يجرؤ على الإشارة.. كيف يجرؤ على النظر إليها هكذا..؟ كيف يجرؤ على التلميح..؟

دخلت إلى الحمام بارقة العينين متوردة الخدين ثم راحت تفرك جسمها تحت المياه بطريقة مؤلمة وكأنها تعاقبه لأنه شجع غايڤنغ كلينتيس على الاعتقاد بأنها من الفتيات الرخيصات.. فهي لن تلاحق أبداً ولو بعد مليون سنة رجلاً مثله.

صرّت على أسنانها وهي تجفف نفسها بشدة.. أبداً!

* * *

٢ ـ غابة الرعب

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا ربعاً حين نزلت مينا إلى بهو الفندق لتنضم إلى المجموعة الصغيرة التي تنتظر الدليل الذي سيرافقهم إلى الغابة.

سرعان ما رأت غايڤنغ كلينتيس ولكنها تجاهلته عمداً ثم انضمت إلى بيني وستافرو هولاند اللذين كانا يتبادلان الحديث مع الأزواج الأربعة.

سألتها بيني: «أتتوقين للقيام بالرحلة؟»

عندما أجابتها مينا إيجاباً أضافت:

ـ على فكرة.. ماذا أصابك ليلة أمس؟ فتشت عنك وقت العشاء فلم أجدك.

ـ أكلت في غرفتي.. شعرت بصداع ربما بسبب حرارة الشمس.

إنها تكذب لأنها تعرف جيداً سبب عدم تناولها العشاء في المطعم، فقد أرادت تجنب أي احتكاك آخر مع غايڤنغ كلينتيس لأن حظها العاثر قد يدفعها إلى مقابلته في قاعة الطعام فيتهمها بأنها تعمدت هذا اللقاء أيضاً.

قالت بيني وهي تبدي اعجابها بالسروال الزيتوني التي ترتديه

مينا وبالقميص الأبيض:

ـ تبدين جذابة على أي حال.

كانت مينا تمسك حقيبة من القماش فيها قميص قطني طويل الأكمام وقبعة وأشياء أخرى. كان لون الحقيبة يماثل لون سروالها وقد اشترت هذه الثياب خصيصاً للعطلة.. فكارسون لا يحب أن ترتدي المرأة الجينز ولهذا اضطرت مينا إلى شراء سروال عادي لزيارة والديه.

أصرّ كارسون على أن تتعلم مينا ركوب الخيل.. فمن المتوقع أن تتعلم، ولكنها قررت ألا تشارك بالصيد فمع أنها تستمتع بمنظر الصيادين مع كلابهم. إلا أنها لم ترغب قط في مجاراتهم بهذه الهواية.

قدمتها بيني إلى الرباعي المرح الذي كانت تتحدث إليهم. كان أرنولد، مصمم الأزياء، نحيلاً أشقر الشعر، زوجته سالي ترتدي سروالاً أنيقاً وقميصاً مربوطاً بحزام مزين بقماش ذهبي.. وكان صديقاهما، كولين ونويل بردفورد شريكي أرنولد. سألت سالي مينا:

ـ ألا تشعرين بالوحشة لأنك بمفردك هنا؟

ـ ليس كثيراً، لأنني جئت لطلب الراحة.

كانت بيني قد استدارت للتحدث إلى غايڤنغ كلينتيس أما مينا فوعت بشكل لا يطاق نظرته الحادة الساخرة على بشرتها المتوردة.

أجابت كولين بإشفاق: «أجل.. فالاستعداد للزفاف قد يكون مرهقاً.. متى الحدث الكبير؟»

ـ لم نقرر نهائياً.. فكارسون، خطيبي، يجب أن يسافر إلى

نيويورك قريباً.. وليس متأكداً كم سيطول مكوثه هناك ولكن حالما يعود نحدد الموعد.

قال غايڤنغ بتشدق بعدما ضمَّ نفسه إلى الحديث:

ـ ليس عريساً متشوقاً إذن؟ ألم تحذريه مما قد يصيب المتقاعس في الحب؟

عرفت مينا أنه يلمح إلى أنها هي التي تلح على كارسون للزواج وأرادت أن تخبره بأنه مخطىء، وبأن كارسون ليس ممن يستعجل الأمور.

ضحكت سالي: «أووه.. كلنا نواجه المصاعب في جرّ رجالنا في هذه الأيام إلى مذبح الكنيسة.. هذا ما جنيناه من المساواة بين الجنسين.. لم يعد هناك حاجة للاستعجال على الزواج كما كان في السابق.. هذه الحال هي الفضلى تصوري أن تتزوجي رجلاً لا تعرفين عنه شيئاً. إنه أسلوب قديم يشبه الزواج المدبّر بين غريبين».

ردت مينا بدون اهتمام، متمنية ألا تفضحها لهجتها:

ـ أجل..

كيف لا توافق وغايڤنغ كلينتيس واقف أمامها. لو صرحت بالحقيقة لعرف أن خبرتها مع الرجال معدومة. خجلها الطبيعي، وتعليمات العمة مارولا المتزمتة أثرا في رغباتها الطبيعية في المعرفة ومع مرور السنين أصبحت أكثر خجلاً من الاعتراف بالحقيقة.. فلم يكن حتى كارسون نفسه يعرف أنها عديمة الخبرة.. فالموضوع لم يذكر قط بينهما وتساءلت لأول مرة عما ستكون عليه ردة فعله.. مرت بها أوقات شعرت بأن حقيقتها مكتوبة على وجهها وهذا ما جعلها عرضة للخجل حينما يقترب

منها الشبان، لكنها في النهاية تغلبت على هذا الخجل.

من الواضح أن غايڤنغ كلينتيس، لم يدرك حقيقة خجلها وتزمتها مع الجنس الآخر، واضطرت لمحاربة غضبها المتصاعد، وهي تتذكر مواجهتهما بعد ظهر اليوم السابق.

حين شغلت بيني اهتمام سالي وجدت مينا أن «البعبع» الذي تفكر فيه أصبح قرب مرفقها. قالت له بصعوبة:

ـ أرجو أن لا تتهمني بالانضمام إلى الرحلة لأجبرك على التعرّف إلي.

ازدادت غمازتا وجهه عمقاً وهو يبتسم:

ـ يصعب ذلك.. يجب أن أكون مصاباً بجنون العظمة حتى أفكر بهذه الطريقة. خاصة وأنني سجلت اسمي أولاً.. أتستمتعين بالسير على الأقدام؟

لم يبدُ مهتماً بما إذا كانت تستمتع به أم لا. لكن مينا أجبرت نفسها على الرد بأدب:

ـ أجل.. لقد نشأت في الريف..

ـ عظيم.. ولكن رحلة اليوم لا تشبه نزهة ريفية. هذه جبال شديدة الانحدار، وأعتقد أن الغابة كثيفة جداً...

قال ستافرو مازحاً: «أتحاول إحباط عزيمتنا؟»

ـ أبداً.. يبدو أنني أعطيت انطباعاً خاطئاً.. في الواقع، لو ظننت أن الرحلة ستكون مشقة لي لما قبلت بها.

لامس ساقه اليسرى وهو يتكلم، فتذكرت مينا قول ستافرو إنه شاهده يعرج.. وأضاف بحدة:

ـ لقد تورطت في.. حادثة.. وأنا هنا لأسترد عافيتي، ولأمارس تمارين تعيدني معافى إلى عملي.

سأله ستافرو: «أنت في الجيش على ما أعتقد؟»

ـ أجل.

كانت الكلمة خالية من أي تعبير. ولكن مينا نظرت إلى وجهه وهو يتكلم، وحبست أنفاسها لأن مظهره تغيّر كلياً إذ قست ملامحه ومر بعينيه وميض أسود.. ما الذي في السؤال البريء حتى يثير ردة فعله هذه؟ أهو مطرود من عمله، أو ما شابه ذلك.. فلقد سمعت من والد كارسون أن أموراً كهذه قد تقع. ولكن لماذا تهتم بردة فعله؟

قال ستافرو مقاطعاً أفكارها: «وصلت وسيلة النقل».

كان خارج الفندق سيارتا لاندروڤر مزودتان بمقاعد إضافية، مشرعة للهواء الطلق.

ـ هل الجميع جاهز؟

صعد الأزواج الأربعة أولاً تبعهم العروسان. وكانت مينا على وشك الجلوس قربهما حين منعها الدليل..

ـ اجلسي في السيارة الثانية.. أنا أجلس هنا.

وهكذا، اضطرت للانضمام إلى بيني وستافرو في مؤخرة السيارة، وخفق قلبها بشدة حين اندس غايڤنغ كلينتيس بطوله الفارع إلى جانبها.

لم يكن في السيارة مساحة كبيرة بسبب بيني وستافرو الضخمي الجثة. أحست مينا بحرارة جسد غايڤنغ كلينتيس تحرق بشرتها فحاولت الابتعاد، لكن صعب عليها ذلك بدون أن تدس نفسها بستافرو.

كان الطريق من المجمع الفندقي ممهداً. ولكن، حالما انعطفت بهم السيارتان، وجدوا أنفسهم على طريق مهجورة منذ

سنوات. وعندما وثب اللاندروڤر فوق نتوء كبير ارتمت مينا على غايڤنغ كلينتيس.. فأحست وكأنها اصطدمت بجدار صلب، وارتفعت ذراعه لتنقذها، وتمسك بها على ذلك الجدار الصلب المسمى صدره.. مرت لحظات قبل أن يتركها ثانية ولكنها كانت أطول لحظات مرت بها مينا. لقد حرقت حرارته قماش ملابسها الرقيقة، فتصاعد اللون القرمزي تحت بشرتها وقد أدركت أنه قد أحس بها كما أحست هي بقسوته ورجولته.

ـ مينا.. هل أنت على ما يرام؟

قطع سؤال بيني عليها أفكارها، فأجابت:

ـ أنا بخير.. شكراً لك سيد كلينتيس.. كدت أقع على غفلة مني.

كان في النظرة التي رمقها بها ما هو مهم:

ـ يحدث هذا للجميع.. أرجوك.. ناديني غايف يا مينا.

صاحت بيني تجذب الاهتمام عن وجنتي مينا المتوردتين:

ـ آه! انظروا إلى هذا المشهد! هل جئت إلى الكاريبي من قبل غايف؟

ـ لا.

نظر الجميع يميناً، حيث تنحدر الأرض حتى البحر الأزرق المنتعش الذي تذوب زرقته لتصبح ليلكية ضبابية عند الأفق.

تنهدت بيني: «إنه جميل جداً!»

قال ستافرو: «لكنه فقير.. لا يبرح تفكيري فقر أهل الجزيرة.. حين يكون المرء هنا يفهم سبب انجذاب هؤلاء الناس إلى الشيوعية».

رد غايف: «أنت على حق».

- ثمة جناح بساري قوي وضخم في الجزر الكاريبية، وهم يتلقون تعليمهم وتدريبهم في كوبا، وإن لم ينتبه الغرب ويهتم استيقظ يوماً ليجد أننا خسرنا منطقة الكاريبي.

احتجت بيني:

- أوه.. بلا سياسة أرجوكما! مينا، انظري إلى ذاك البناء الذي يوشك أن يقع.

كانت المسافة طويلة للوصول إلى الغابة الاستوائية. وازدادت الأمور سوءاً بسبب الطريق الوعرة. ومع أن سانت ستيفان هي من أكبر جزر الكاريبي، فهي مهملة بشكل كبير.. كان مدير الفندق قد قال لمينا إنهم يأملون بأن تساعدهم عائدات السياحة في تحسين أوضاع الجزيرة.

كان السهل المنبسط من الساحل حتى الغابة غنياً بأشجار الموز، مصدر الرزق الرئيسي في الجزيرة، بعد قليل بدأت تتلاشى ثمار الموز المحمية في أكياس بلاستيكية زرقاء.. وكلما اقتربت المجموعة من وجهتها، ازداد إحساس مينا بتوتر يبعثه هذا الرجل الجالس إلى يسارها ولكن لم يكن في طريقة جلوسه ما يكشف أحاسيسه، فقد كان وجهه منحرفاً قليلاً عنها وكأنه يتفرج على المناظر الريفية، وكل ما كانت تراه مينا هو خط فكه المتشدد. ولكن لا مجال للشك في التوتر المنطلق منه، وأحست بأطراف أعصابها ترتجف برد فعل غريزي، وتساءلت عما دهاها.

قالت بيني حين ظهر مبنى منعزل على طرف السهل حيث يتصاعد الجبل البركاني إلى السماء مباشرة:

- آه! لا شك أنه المطعم!

كان على جانبي السهل اخضرار استوائي كثيف ولكن السهل

نفسه بدا خالياً من المساكن. مع أن بضع طرق وعرة بدت وكأنها تقود إما إلى قرى وإما إلى منازل قريبة.

قال غايف شارحاً حين علقت مينا على خلو المكان من مظاهر السكن:

- يبنى معظم أصحاب المزارع بيوتهم على الجانب المطل على المحيط الأطلسي. كانت تلك الجهة أقل عرضة لهجومات القراصنة.

بدا وجهه مسترخياً، وهو يكلمها كما بدت عظام وجنتيه أقل توتراً، ثم بدأت سيارتا اللاندروفر بالتسلق نحو المطعم.

المطعم كان مبني من الخشب ولكن لونه الأخضر الأصلي تلاشى منذ زمن بعيد وأصبح زيتونياً كئيباً، كان الهواء في الداخل رطباً.. ولم تشعر مينا في حياتها بفقدان الشهية كحالها الآن. عندما استقر أفراد المجموعة حول موائد خشبية، خرجت إلى الخارج فوجدت الهواء أبرد وأنعش.

- ألست جائعة؟

لم تلاحظ أن غايفنغ كلينتيس لحق بها، لكنها هزت رأسها نفياً رافضة الاعتراف بضعف مؤقت استولى عليها في المطعم.

- ولا أنا.

أدهشها الاعتراف، وباحت أساريرها بهذا.

فسألها متجهماً: «ما الأمر؟ ألا يسمح بأن يكون، لمن هم قساة مثلي، مشاعر طبيعية؟»

- لم أقل هذا..

لكنه قاطعها وأكمل ساخراً:

- لم تقولي هذا.. صحيح لأنك لست بحاجة إلى القول

فهاتان العينان تخبران كل شيء نيابة عنك.. أنت شخصية متناقضة فمن جهة تبدين امرأة عصرية متحررة تقضي إجازتها بعيداً عن خطيبها. ومن جهة أخرى توحي عيناك بأنك راهبة مبتدئة، ليس لديها فكرة عن العادات العصرية.

ردت مينا بلهجة ذات مغزى:

ـ هلا عذرتني فقد قررت العودة لأتناول بعض الطعام.

ولكنها عندما دخلت إلى المطعم لم تستطع سوى ارتشاف كوب ليموناضة.. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية حين تقدمهم الدليل إلى أحد الممرات التي تقودهم من المطعم إلى الجبال.

ما هي سوى نصف ساعة، حتى نضحت مينا بالعرق.. ولم تكن وحدها في هذا المصاب فقد بدوا جميعاً بمن فيهم غايڤنغ كلينتيس متأثرين بالرطوبة فقد كانت مقدمة قميص غايڤنغ قاتمة مبللة بالعرق. ومع ذلك، لم يرفع أكمامه أو تخلص من قميصه كما فعل الرجال وربما السبب معرفته بمدى جاذبيته وهو في قميص وبنطلون أسودين. سارعت مينا ساخرة إلى إبعاد هذه الأفكار الحمقاء عن رأسها، فهو ليس رجلاً يحتاج إلى جذب اهتمام النساء بارتداء ملابس مميزة، لأنه مهما ارتدى سيجذب أنظار النساء.

تكاثفت أشجار الغابة كلما توغلوا فيها وكانت أشجار الماهوغوني هي المسيطرة وأما أشجار الكرمة فالتفت حولها، فيما غطت النباتات الميتة والمهترئة أرض الغابة.. توقف الدليل أكثر من مرة ليشير إلى الأوركيديا النامية بين النباتات الخضراء المنتشرة، وكانت أحياناً أنفاسهم تنقطع بسبب صياح ببغاء حاد. وفي مناسبات عديدة سمعوا خرير الماء، ولكنهم لم يشاهدوا

ساقية.

ندمت مينا على انضمامها إلى الرحلة.. ففي هذه الغابة ما يغمّ القلب وما يقبض النفس.

لم يبدُ أن غايڤ يعاني أية مشكلة في متابعة خطوات الآخرين، رغم ادعائه بأنه يسترد صحته من أثر حادثة.. لكن، في إحدى المراحل، حين طلب الدليل منهم التوقف لاحظت مينا، وهي تنظر إلى غايڤ أن لونه قد شحب فجأة، وأن العرق يتقطر من بشرته، وأن أصابعه تشد على وركه.

ـ هل أنت بخير؟

حرره سؤالها المتهور الهامس مما كان فيه، فقد استرخى وجهه فجأة وقال بقسوة:

ـ بخير.. تعالي، يبدو أن الدليل جاهز للانطلاق.

ساروا على الأقدام في الغابة ما يزيد عن ساعتين.. وكانت مينا تزداد غمّاً كلما تكاثفت الغصون الملتفة الحاجبة نور الشمس.

تابعت المجموعة التسلق بحدة فضاق الممر واضطروا أحياناً للسير واحداً واحداً.. في إحدى المراحل، وكما وعد منظمو الرحلة، انهمر المطر فجأة بملاءة مشبعة اخترقت كثافة الأشجار، وزودهم الدليل بمظلات كان قد حضّرها سلفاً، لتقي كل شخصين من تدفق المطر.

شاركت مينا المظلة مع غايڤ مستغربة هطول المطر المفاجيء. قال لها غايڤ باقتضاب ما سبب لها الدهشة:

ـ هذا ما ستعتادين عليه.

علقت: «قلت إنك لم تزر الكاريبي»

ـ لم أزر المنطقة، ولكن الغابات الاستوائية متشابهة.

ولم يقل المزيد.. فاعتقدت مينا أن الموضوع لا يسره.. ولسبب ما، توالفا معاً في فريق واحد أثناء السير، ربما لأن الجميع أزواج، وتمنت من كل قلبها لو رفضت المشاركة بالرحلة إذ لم يعجبها الجو المسيطر على الغابة كما لم تعجبها أيضاً قشعريرة الارتباك التي كانت تختبرها كلما اضطرتها وعورة الممر إلى ملامسة غايف..

نظر غايف إلى ساعته وعبس.

ـ كان علينا العودة الآن.. فليس في هذا المكان فترة غسق كالتي نعرفها في بلادنا فبعد ساعتين يحل ظلام دامس.

تقدم إلى الإمام ليمسك ذراع الدليل سائلاً لكن الدليل هز رأسه بعنف. وقال:

ـ لم يحن وقت العودة بعد.. أصبح وشيكاً ولكنه لم يحن.

بدا وكأنه قائد عسكري، يحث جنوده على المزيد من الجهد.. فتأوهت سالي عندما ساروا ربع ساعة أخرى:

ـ كم بقي لدينا؟

كانت مينا موافقة على السؤال.. فقد شعرت بالحرارة الشديدة وتاقت نفسها إلى حمام بارد.. لقد جعل العرق مقدمة شعرها أقتم لوناً وأحست بجفاف فمها. كما أنها ندمت على الغداء الذي رفضته، فقد قضّت وخزات الجوع مضجعها. كانت تحمل بعض البسكويت في حقيبتها ولكنها وجدت صعوبة في إنزال الحقيبة عن كتفها لتفتش فيها.. بدا الجميع متعباً إلا غايف الذي ما زال قادراً على مجاراة الدليل بدون تعب.

شاهدت مينا الدليل يتوقف عندما وصلوا إلى مكان فيه شجرة كبيرة.

توقف الجميع متأوهين آهات الراحة إلا الدليل، إذ بدا متوتراً قليلاً.

راقبت مينا عينيه اللتين جابتا في المكان بحثاً عن شيء ما.. وتقدم غايف ليقف بقربها.

ـ أهناك شيء؟

كان هو أيضاً يراقب الدليل، ومع أنه أخفى ذلك جيداً، إلا أن مينا لمحت قلقاً محدداً في عينيه، قبل أن يخفي توتره ويقول بعذوبة:

ـ أمستعدة لرحلة العودة؟.. أنا..

صمت فجأة لأن دزينة من الرجال المدججين بالرشاشات المرتدين ثياباً عسكرية اقتحموا المكان.

سمعت مينا غايف يشتم من بين أسنانه، ثم سيق الجميع معاً كالقطيع.

ـ ماذا يجري هنا بحق الله؟

وجه غايف السؤال إلى من بدا مسؤولاً عن الجماعة المسلحة.. وبدا واضحاً أن غايف هو القائد الطبيعي إذ ما من أحد من الرجال الآخرين كان يتحدى حقه.. وأحست مينا بأن الجميع مثلها، مصابون بدوار يمنعهم من التفكير أو من طرح سؤال «لماذا».

أمرهم الرجل بإشارة بندقيته بالوقوف ثم تقدم إلى الأمام قائلاً لغايف:

ـ ستبقون رهائن حتى تطلق حكومتنا سراح رجال تحتجزهم عن غير وجه حق منذ ستة أشهر. حان الوقت حتى يسمع العالم كله ما يجري هنا.. لقد سئمنا من الرأسمالية غير المؤهلة، ومن

الحكومات التي تتركنا جياعاً والتي ترفض تعليم الأولاد الذين تجاوزوا الرابعة عشرة والتي تحكم على شعبها بالفقر والإذلال مدى الحياة.

كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة فرد عليه غايف:

ـ لن يغيّر احتجازنا شيئاً. ولكن لو تركتمونا بدون أن تؤذونا أعدك بأن نبذل قصارى جهدنا لإيصال وجهة نظرك إلى حكومتك.

لم يحرك أحد من الموجودين ساكناً.. كان الجميع ينظر إلى غايڤنغ وكأنه قائد يتبعونه.. ولم تصدق مينا أن هذا يحدث حقاً.. نظرت حولها بحثاً عن الدليل فإذا هو غير موجود. كانت بيني تتمسك بذراع ستافرو شاحبة الوجه وكان العروسان متعانقين.. وسالي وكولين، ملتصقتين بزوجيهما.. أما هي فلم تجد من تلجأ إليه.

سخر الفدائي منه:

ـ طبعاً.. وبعد ذلك يرموننا في السجن مع رفاقنا. لا.. يا صديقي.. نحن بحاجة ماسة إليكم، ولا نستطيع إطلاق سراحكم فبدونكم لن تطلق حكومتنا سراح رفاقنا بل ستعدمهم.. تعالوا.. أمامنا أربع ساعات من المسير. وسيدرك فندقكم في هذا الوقت أنكم ضائعون ولكنهم لن يجدوكم. لأن قلة من الناس يعرفون ممرات الغابة كما يعرفها كاستر هذا.

أشار بفوهة بندقيته إلى رجل محليّ كان يشرف عليهم من فوق حاملاً رشاشاً..

شاهدت مينا كولين من طرف عينيها تترنح ناحية نويل ووجهها كورقة بيضاء، وتأوهت بصوت منخفض مذعور:

ـ يا الله ساعدنا! نويل.. ماذا سنفعل؟

أطلقت كلماتها موجة ذعر بين الجميع وشعرت مينا بأنها ترتجف أما غايف فظل هادئاً.

قال القائد آمراً: «تعالوا.. حان وقت الذهاب».

صاح أرنولد وايت بصوت متوتر:

ـ لن تنجوا بفعلتكم هذه! الحكومة الإنكليزية...

سخر رجل العصابات منه:

ـ إنها بعيدة آلاف الأميال يا صديقي.. والزمن الذي كانت فيه البلدان مستعدة للمخاطرة في مواجهة عسكرية لأجل رعاياها قد ولّى منذ زمن بعيد.. لن تفعل حكومتك لك شيئاً..

انفجر ستافرو صائحاً:

ـ ولن تفعل حكومتكم من أجلكم شيئاً كذلك!

كان على بشرته طفرة حمراء غير صحية، وشاهدت مينا زوجته تمد يدها إليه بقلق.. تتمتم برعب:

ـ إنه ضغط الدم.. رباه! ماذا سيحدث لنا؟

قال غايف لرجل العصابات:

ـ لا تتوقع منا السير بسرعة رجالك.. إن كنت تريدنا رهائن فعليك المحافظة على حياتنا. فلن تسلمك حكومتك رفاقك مقابل أجساد لا حياة فيها.. وإن أردتنا أحياء فاسمح..

عبس رجل العصابات، يفكر في ما يقوله غايف، ثم استدار ليقول شيئاً لرفاقه بلغته ولكن رفاقه هزوا أكتافهم بلا اكتراث ثم اكفهرت وجوههم..

قال لغايف: «لن نستطيع تحمل مخاطر إضاعة الوقت».

رد غايڤنغ بهدوء:

ـ ولا نستطيع كذلك المخاطرة بأرواحنا.. ما رأيك لو أخذت

رهينة واحدة، وأطلقت سراح الباقين. خاصة إذا ضمنا لك نشر قصتكم في الصحف البريطانية. فبهذه الطريقة ستنال قضيتكم دعاية كبيرة، لا أظن أن حكومتكم قد تذيع خبراً مفاده أن الناس غير آمنين في سانت ستيفان.

حبست مينا أنفاسها فيما كان قائد العصابة يتشاور مع رفاقه.. هل سيقبل اقتراح غايڤنغ؟ لا شك لديها أن غايڤنغ سيتطوع للبقاء رهينة. وتساءت عما إذا كانت قد أخطأت في تقديره على أي حال..

كانت الشمس تهبط بسرعة نحو الأفق وكان الخوف يجتاحهم بانتظار قرار رجال العصابات.

استدار القائد إلى غايڤنغ يقول بخشونة:

ـ أنت.. أتعدنا بأن ننال الدعاية المطلوبة؟

هز غايڤنغ رأسه إيجاباً، ثم تمتم لمينا من بين أسنانه:

ـ من قال إن القلم أمضى حداً من السيف، كان يعرف حقيقة الحياة.

ثم التفت إلى ستافرو:

ـ سيبلغ السيد هولاند القنصل البريطاني بما حدث كما سيبلغه باتفاقنا الذي يضع حرية أصدقائي مقابل نشر قضيتكم.

ـ لن ترغب حكومتنا في معاداة بريطانيا. لذا ستعمد إلى إطلاق سراح رفاقنا حالما تعلم بأمر الرهينة البريطانية.

لكن مينا لم تكن واثقة من هذا. فقد نشرت الصحف البريطانية مؤخراً مقالات عن أشخاص احتجزوا عدة أشهر بدون أن تفعل الحكومة شيئاً للتفاوض من أجل حريتهم..

قال قائد العصابة: «حسن جداً إذن.. رفاقك أحرار».

صاح بأمر أحد رجاله، فتقدم إلى الأمام وأشار إليهم أن يتبعوه.

كانت مينا الأخيرة ولكنها لم تقاوم إلقاء نظرة أخيرة على غايڤنغ.. الواقف وظهره إليهم. فيم يفكر؟ أهو خائف؟ لا شك في ذلك.

ـ انتظري!

أوقفها الأمر القاطع الحاد الصادر من قائد المجموعة الذي تقدم إلى الأمام وأمسك ذراعها.. كانت تسير بمفردها في مؤخرة الصف الطويل، وارتجفت تحت نظرة عينيه الباردة التي كانت تعرّيها من ملابسها.

استدار إلى غايڤنغ يقول متجهماً:

ـ ستبقى.. لأن وجودها سيحول دون تفكيرك في الهرب.. فعليك سيماء هذا النوع من الرجال يا صديقي. أما الآن فستبقى معنا لأن امرأتك أسيرة أيضاً فإن حاولت الهرب قتلناها.

تناهى إلى مسمعي مينا احتجاج بيني قبل أن يسكتها ستافرو، ولكنهما لم يدركا نظرة العجز في عينيها وهي تنظر إلى ظهر غايڤنغ المتصلب.

مرّ دهر قبل أن يستدير إليها وعيناه خاليتان من أقل تعبير. ولكن القائد سارع يقول له:

ـ لا تجادل وإلا احتجزت الجميع.

أرادت مينا الاحتجاج بالقول: أنت مخطىء، فلست امرأته!.. ولكن الكلمات علقت في خناقها، ولم تجرؤ على النظر إلى الآخرين المجرجرين أذيالهم بعيداً.

قال القائد لغايڤنغ آمراً:

www.elromancia.com

- تعال.. حان وقت ذهابنا.. أنت على حق. كان سيعيق الآخرون تقدمنا، وإن حاولت تأخيرنا بتعمد البقاء في المؤخرة وهبت امرأتك إلى رجالي. فقد مضت أسابيع منذ أن رأوا فيها امرأة. مخيمنا معزول وحياتنا فيه قاسية بالنسبة لامرأة كامرأتك.

تجمّد الدم في عروق مينا لدى سماعها تهديده، وتحولت إلى قطعة ثلج باردة، ورفضت النظر إلى غايقنغ، لماذا لم يقل له الحقيقة؟ لماذا لم يقل إنهما مجرد غريبين؟

عرفت الرد بعد عدة لحظات.. حين همس لها بصوت منخفض، بحجة مساعدتها في منحدر قوسي:

- أعرف في ما تفكرين.. ولكن الوقت غير مناسب لإبداء المشاعر. لو قلت لهم الحقيقة، لعرضتك إلى اغتصاب جماعي.. فلن يلمسوك ما داموا يعتقدونك امرأتي. إذ يتوقعون مني الالتزام بتعليماتهم من أجلك.. سأقاتلهم بيدي ولن يرغب أحد منهم أن يكون الشخص الذي سأقتله بيدي، قبل أن يقطعوني نصفين بهذه اللعب الروسية التي يحملونها!

* * *

٣ - كهف الرغبات

هبط الظلام بسرعة فتدثرت الغابة بستار أسود كثيف بعث التوتر إلى مينا.. ولكنه في الوقت نفسه أخفى منظر الرجال الذين يحرسونهما وبنادقهم التي لا تتحرك قيد أنملة عن وجهتها المهددة.

مع هبوط الليل، جاء المطر الذي لم يكن شبيهاً بمطر بلادها، بل كان ستارة حقيقية متماسكة من المياه بدأ بدون سابق إنذار ولكنه توقف بعد ربع ساعة، ملصقاً ثيابهم إلى أجسادهم، جاعلاً الممر الترابي تحت أقدامهم موحلاً.

نسيت مينا عدد المرات التي تعثرت فيها. بل فقدت منذ وقت طويل تقدير الوقت.. في البداية حاولت المحافظة على روحها المعنوية مرتفعة بالقول لنفسها، سرعان ما يصل رفاقهما إلى الفندق، فيذاع الخبر، وينطلق الإنذار وتتم نجدتهم.. ولكنها عرفت أنها تعيش في وهم.. فستمر أربع ساعات على الأقل قبل أن يصل الآخرون إلى الفندق، وفي مثل هذا الوقت قد ينقلهما رجال العصابات إلى مكان لا يعرفه إلا الله.

بدت الغابة وكأنها تطبق عليها، فتوترت أعصابها، حتى أصبحت على استعداد للصراخ والهرب، بدون اكتراث بما قد

www.elmanara.com

يحدث.

أحس غايڤنغ كم كانت قريبة من فقدان السيطرة على أعصابها.. فسارع إلى الإمساك بذراعها... كانت قبل ساعة سترفض بمرارة هذه اللمسة أما الآن فشعرت بامتنان عاجز وذكرتها لمسته بأنها ليست بمفردها.

ـ هيا.. أسرعا!

كانت فوهة البندقية باردة على بشرتها، فارتجفت. وكادت تفقد توازنها. عندما حاولت الإسراع حث غايڤنغ خطواته واشتدت أصابعه على ذراعها بقوة.. تذكرت أنه كان يستردّ عافيته من حادثة ما، وأن ستافرو قال لها إنه يعرج قليلاً.. كانت سرعة الرجال متعبة، وأحست مينا بألم في جميع أنحاء جسدها وضاقت أنفاسها. أما غايڤنغ فبدا غير متأثر.

تعثرت مجدداً حين أصبح الطريق صعوداً، وكادت تنكب على وجهها، رغم محاولة غايڤنغ إنقاذها تناهت إليها ضحكات آسريها المزعجة.. وبدأت دموع الضعف تتجمع في مآقيها.

ـ انهضي.

كان هذا صوت غايڤنغ القاسي الذي لا يلين.. فاحتجت:

ـ لا أستطيع الاستمرار.

رد متجهماً: «بل تستطيعين وعليك السير إلا إذا أردت البقاء هنا لتموتي. فهؤلاء الرجال لا يلعبون، أو يتسامحون، انهضي.. إن كانت حياتك غير ثمينة عندك فحياتي عندي ثمينة جداً».

تحدث بهدوء وجدت مينا معه صعوبة في أن تسمعه.. كان يخنق صوته لمنع الكلمات من الوصول إلى مسامع غيرها..

احتجت بمرارة:

ـ لا بأس بهذا بالنسبة إليك.. أظنك معتاداً عليه.. فأنت..

انقطعت أنفاسها بوحشية بعدما أوقفها على قدميها وشدها إليه بقسوة، يكاد يحرمها من التنفس.. سمعت مرة أخرى الرجال يضحكون إنما بطريقة مختلفة.

مضت لحظات قبل أن يتركها مما لم يكن عناقاً بل عقاباً خشناً.. تألم جسدها من ضغط ذراعيه. قال بغضب قبل أن يبتعد عنها مباشرة:

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة! انهيار آخر كهذا، ونموت.. أفهمت؟

فهمت ما قاله متأخرة. وعندما كانت تتابع سيرها على ساقين مرتجفتين تساءلت عما كان سيحدث لو سمع أحد الخاطفين ما أوشكت على التفوه به، فالمعلومات عن علاقة غايڤنغ بالجيش البريطاني ستثير ردة فعل كبيرة.

أجبرت نفسها على السير دامعة العينين تشعر بكره شديد لا تعرف إن كان موجهاً إلى غايڤنغ كلينتيس أم إلى الخاطفين.

ساروا مسافة طويلة في الطريق الضيق الملتوي، الذي أحست مينا أنه يدور حول الجبل. وكانت مينا تشعر بالعذاب كلما سارت خطوة. لم يكن هناك مجال للأفكار أو للخوف. بل الحاجة الجسدية الضرورية للاستمرار في التقدم.

أصبح انهمار المطر المفاجيء أمراً عادياً. وبات التصاق ثيابها بجسمها أمراً طبيعياً والسير ولكن عندما توغلوا بين أعشاب كثيفة كانت تخفي الطريق، أحست بأنها دخلت في كابوس مرعب، يشبه ذاك الذي كانت تراه في منامها وهي طفلة.

لامست حزمة من أوراق الشجر المتدلية بشرتها، فشعرت

www.elromancia.com

بالألم ولكن عقلها كان متعباً ومشغولاً بعملية السير البسيطة. مرت لحظات أخرى، طارت خلالها إحدى الفراشات الضخمة المنتشرة في الغابة، فرفعت ذراعها لتبعدها، ولكنها لم تلبث أن تشنجت وظهر عليها رعب شديد، بدائي، جعل غايڤنغ الذي كان يسير خلفها مباشرة، يصطدم بها.

قال لها «ما بك؟» ثم أسرع يحيط معصمها بأصابعه بحثاً عن العلقة الطفيلية التي علقت بجسمها الطري.. سرعان ما كبحت صيحتها.. وأغمضت عينيها برد فعل طفولي لتمنع نفسها من رؤية الجسد اللزج.

- تحركا!

ولكن غايڤنغ تجاهل هذه المرة الأمر الفظ واضطر القائد إلى التراجع ليرى سبب وقوفهما. وقال معلقاً حين رأى ما حدث:

- لحمك طري يعجبها أكثر من لحمنا الخشن.. خذ!

رمى علبة ثقاب إلى غايڤنغ وسأل ساخراً:

- أتعرف ماذا ستفعل؟

- أعتقد هذا.

أشعل غايڤنغ بهدوء عود ثقاب ثم قرّبه من جسم العلقة.. راقبت مينا برعب شديد، انكماش مصاصة الدماء، ووقوعها أرضاً ثم ما لبث جسمها أن ارتجف ارتجافة شديدة وبات غير قادر على الوقوف بسبب ردات فعل غريبة اجتاحتها.

- هيا.. تقدمي!

ذكرتها فوهة البندقية بما حولها.. فأطاعت طاعة عمياء وبدأت تتحرك. لا شك أنهم قطعوا أميالاً.. كم الساعة الآن؟ لم يكن معها ساعة، ووجدت صعوبة في معرفة المدة التي مرت منذ

احتجازهما.

كانت الرطوبة تخف كلما ارتفعوا وكانت كثافة الأشجار تخفّ أيضاً ولكنها ما زالت كثيفة بما فيه الكفاية لتكون ستارة سميكة تغطي السطح الشديد الانحدار الذي يتسلقونه.. تذكرت مينا أنها قرأت في الكتيّب السياحي أن قمم الجبال مغطاة بالأشجار والنباتات المورقة..

أخيراً، أمر القائد بالتوقف، مع أن مينا لم ترَ في ما حولهم ما هو مميز ليستدعي الوقوف. ثم أشار نحو كتلة منحرفة من الصخر الأسود اللماع:

- من هنا.. بسرعة!

ما إن اقتربوا حتى أدركت مينا أن ما ظنته ممراً صخرياً ضيقاً في وجه صخور بركانية، لم يكن سوى مدخل إلى شق عميق.

وقال القائد، متفاخراً:

- اكتشفت هذا المكان في صباي.. وأشك في أن أحداً في سانت ستيفان يعرف شيئاً عنه.

صدقته مينا فانكمشت برعب من الظلمة الجهنمية التي كانت تفغر فاها شرهاً. حثها غايڤنغ هذه المرة على التقدم، وكان وجهه متجهماً متحفظاً.. وكأن أفكاره في مكان آخر. كان الشق ضيقاً بحيث كادوا لا يستطيعون السير فيه فرادى.. مينا، التي طالما عانت من الخوف في أمكنة كهذه شعرت ببشرتها تقشعر رعباً لأنها تذكرت عندما رأت في طفولتها كهف «انغلوايت» ولكنها ليست الآن برفقة والدين متفهمين يسرعان إلى إخراجها من هذا المكان لتنشق الهواء النقي. عضت على شفتها بقسوة لمنع نفسها من الاحتجاج فأحست بطعم الدم.

أخيراً.. وبعدما أحست بأنها غير قادرة على تحمل ثانية أخرى في ذلك الممر الضيق، انفرج الطريق أمامهم فظهرت سلسلة من الكهوف.. الأولى كانت فارغة بحيث لم يجد رجال العصابات صعوبة في سوق الأسيرين إلى أحد الكهوف.

كان النفق هذه المرة قصيراً، وانفتح على كهف كبير مضاء جيداً بمصابيح الغاز التي كانت ترسل ظلالاً مخيفة على الصخر اللماع، كان الأثاث من النوع المستخدم في مخيمات العطلات.. كراسي من قماش قابلة للطوي وطاولة وفرن غاز إلى جانبه جرّة وعلى الجانب الآخر براد.. وكأنما أحس القائد بدهشتها فضحك قائلاً:

ـ حتى أمثالنا يحتاجون إلى الراحة المنزلية. إنما لا يخدعنك ما ترين، فنحن قادرون على العيش في الغابات إذا استدعى الأمر.

ثم صاح لأحد رجاله من فوق كتفه:

ـ كاستر.. أعدّ لنا الطعام بينما أرشد ضيفينا إلى جناحهما.. ستجدان الراحة لأنني سأخصص لكما جناح شهر العسل.

جعلت قهقهاته التي تبعت مزاحه مينا ترتجف. كان الممر الذي ينزلونه عريضاً وقصيراً انتهى بهم إلى كهف مفروش بطريقة أوضحت أنه تم التخطيط لاختطافهما مسبقاً، ففي الصخر باب خشبي ضخم له قفل ثقيل من الخارج.

قال القائد:

ـ لن تستفيدا من الهرب حتى وإن استطعتما الوصول إلى الكهف الرئيسي. لقد أمرت رجالي بإطلاق النار عليكما حالاً.. إنما لا ليقتلوكما بل ليصيبوكما بطريقة..

قاطعه غايڤنغ باختصار:

ـ تقعدنا مدى الحياة..

حملت الابتسامة الماكرة التي رافقت كلماته موجات جديدة من الغثيان إلى نفس مينا.. وطافت عيناها في الكهف، فلاحظت أكياس النوم على الأرض، ثم الترتيبات الصحية البدائية، وأجبرت نفسها على عدم فضح مشاعرها أمام الرجلين اللذين يراقبانها. قال السجّان ساخراً:

ـ ستظلان بخير حتى يصلنا خبر إطلاق سراح رفاقنا ولكنكما ستظلان محتجزين في هذه الغرفة طوال الوقت.

صاحت مينا: «ماذا ستفعل.. ماذا..»

ـ آه! أنا واثق أنكما ستجدان طريقة لقطع الوقت!

الخبث الذي رافق كلماته كاد يُفقد مينا الوعي بموجة اشمئزاز جديدة. وقفت مشيحة بظهرها إلى الباب حتى سمعته يُقفله ثم لم يلبث أن تحرك غايڤنغ بسرعة وراءها..

ـ ماذا سيصيبنا؟

كرهت نفسها لأنها بطرح هذا السؤال تظهر عجزها.

ـ في الوقت الحاضر.. لا شيء. يؤسفني تورطك بهذا الوضع.

ـ لم تكن غلطتك. لقد أحسنت صنيعاً لأنك أقنعتهم بتحرير الآخرين!

ـ يجب أن نتكلم..

ـ عمَّ؟

ـ عن طريقة ما للفرار.. فلا جدوى من الاعتماد عليهم في إطلاق سراحنا.. فلقد ولت الأيام التي كانت الحكومات تستسلم فيها لتهديدات الجماعات المسلحة.

- أتعني...

- أعني.. أن الله يساعد من يساعد نفسه.. ولا سبيل إلا الفرار للخلاص من الأسر.

وكأنه عرف مدى تأثير كلماته فيها، فتقدم منها يضع يديه على كتفيها لتواجهه.

- لا أقول ذلك لتخافي بل لتواجهي الواقع.. نحن رهينتان لدى جماعة مسلحة تعرف كما نعرف نحن أن حكومتهم لن تحرر رفاقهم.. وتعرف أن موت سائحين بريئين سيمنحهم تغطية إعلامية كبيرة.

- لكنك وعدتهم بهذا.

- يريدون إحداث صدمة.. تعرفين مثل هذا السيناريو؟ فما هم بالجماعة الأولى التي تحاول شيئاً كهذا، ولن تكون الأخيرة.

- لا.. وقع انقلاب في أفريقيا الشهر الماضي. لقد قرأت عنه مقالات في الصحف وللحد من الانقلاب تدخلت فرقة الإنقاذ الخاصة التابعة للجيش البريطاني..

رد بفظاظة: لقد قام بعملية الإنقاذ أربعة وعشرون جندياً وقد استطاعوا إنقاذ الرجلين ولكن لم يخرج حياً إلا ثمانية عشر رجلاً من أصل ستة وعشرين.

قطبت مينا: «لم أقرأ شيئاً عن هذا».

كان وجه غايڤنغ رمادياً تقريباً تحت ضوء المصباح وكانت تخططه المرارة والسخرية المؤلمة التي أصبحت مألوفة لديها..

قال متجهماً: ولن تقرئي لأننا لا ننشر شيئاً عن فشلنا.. فأخبار كتلك تحبط المعنويات.

نحن! خفق قلبها، ثم توقف لحظات وعيناها تعكسان عدم

تصديقها.

- هذا صحيح كل الصحة.. فأنا لا أهذي، لأنني كنت مشاركاً بل كنت أحد المسؤولين عن خسارة ثماني أرواح.. آه! في الواقع، لم تكن غلطتي، فلم نكن نعرف بأمر القنبلة ولكنهم كانوا رجالي وقد قدتهم إلى حتفهم.

أحست بالشفقة المرة، وجف فمها وهي تلتقط توتره: «وحادثتك».

- تريدين رؤية ما تحدثه قنبلة في جسد بشري أليس كذلك؟

مد يده يفك أزرار قميصه وينتزعه بحركة عنيفة: «انظري جيداً.. إذن!»

تمكنت بطريقة ما من عدم فضح صدمتها التي شعرت بها من جراء رؤية الندبات الحية على بشرته المشدودة القاسية السمراء..

ابتلعت ريقها: «ألهذا ترتدي القميص دائماً؟»

لم تستطع منع عينيها من الانزلاق إلى الأسفل، وقرأ ما تفكر فيه فقال بعذوبة: «أتريدين رؤية المزيد؟»

- توقف عن هذا! توقف عن تعذيب نفسك!

- نفسي؟ ظننتني أعذبك أنت، أم أنك لن تعترفي بأن منظر جسدي الممزق يصيبك بالغثيان؟ قد لا يؤثر منظره في جميع النساء، لأن لدى بعض النسوة مرضاً نفسياً يجعلهن يستمتعن بالنظر إلى مشاهد كهذه.

ابتسم بمرارة، ثم أردف:

- حين غادرت أفريقيا، قلت لنفسي إن ما من طريقة قد تعيدني إلى الغابات ثانية.. ويبدو أن الأقدار تضحك عليّ الآن.

تذكرت مينا توتره الذي بدا قبل قليل فانقبض قلبها إشفاقاً.

جعلتها الأصوات خارج الباب تجفل، وتنظر إليه بقلق وما هي إلا لحظة حتى كانت بين ذراعيه. كانت حرارة جسمه القوية تضغط على جسمها وكانت يداه تتسللان إلى ما تحت القميص القطني، تضمها إليه.

أخرس احتجاجها بضغط وجهها إلى صدره. بدت عيناه قاسيتين عندما انفتح الباب وجعلتها طريقته في التحرك تفقد الاتزان وتضطر إلى التعلق بكتفيه، لمنع نفسها من الوقوع.

من يرهما على هذه الحال يظنهما غائبين عن كل شيء.. والغريب أن أحاسيسها لانت تحت تأثير رجولته. عندما كان يعانقها كارسون كانت تتقبل عناقه بكبت مناسب، ولكنه لم يكن يضمها إليه بهذه الطريقة التي تجعلها تحس به بقوة. لقد توقف الزمان وطغت عليها موجة من العاطفة جعلتها تدرك أنها أخيراً وجدت الرجل القادر على تحريك أحاسيسها، وعلى بعث الحياة الرنانة إلى كيانها. كان ما اكتشفته للتو مذهلاً ولكن العناق لم يدم إلا فترة قصيرة.

بعد ذهاب الحارس، أردف يشرح لها خطته:

- نريد إبقاءهم غير خائفين مما قد نقدم عليه وعندها ستتمكن من الهرب.

همست، تدير رأسها عن اليخنة التي وضعها الرجل على الأرض:

- لن نستطيع الهرب.

- يجب أن نهرب.. إما هذا أو الموت.. ماذا لديك هنا؟

وأشار إلى الحقيبة التي وضعتها على الأرض.

- ليس فيها إلا بضعة أشياء حملتها معي على الطائرة..

وللأسف هي خالية من رشاش..

لم يُولد مزاحها الهش رداً وانحنى يلتقطها، ولكنها أسرعت تأخذها منه وقالت:

- كنزة فضفاضة ورزمة من المناديل الورقية التي نصحتني بها موظفة تعمل معي. وهذه الأغراض باتت بدون شك رطبة.

كان في الحقيبة بضع أدوات تجميل ومنشفة صغيرة وعلبتا بسكويت، وقليل من المال.

تغيرت تعابير وجهه فجأة وظهر عليها شيء من الإثارة المرحة ثم تمتم:

- فلنحاول النوم قليلاً.. فقد يكون يوم غد يوماً طويلاً كأيام الجحيم.

بعد الراحة المبدئية في قعر كيس النوم السميك بدأت أرض الكهف تقسو إلى يسارها، استطاعت سماع أنفاس غايفنغ الرتيبة ففكرت أنه لن يجد صعوبة في إيجاد وسيلة ما للهرب.

أخيراً تغلب عليها الإرهاق، وطغى على ما ولده الخوف في جهازها العصبي.

وغطت في النوم ولكنها لم تجد الخلاص حتى في منامها فقد سيطر عليها كابوس تلو كابوس فتقلبت في كيسها الضيق باضطراب وخوف.

في أحد الكوابيس رأت أنهما يسيران في الغابة وشعرت بالخوف الشديد من العلقة التي التصقت بذراعها. فصرخت ولكن صرختها اختنقت تحت ثقل شيء يضغط عليها.. كرّت السنوات وعادت بها إلى الطفولة حيث كانت تلجأ إلى مصباح صغير قرب فراشها لطرد شبح الخوف الذي تولده الظلمة. فجأة استيقظت من

حلم مرعب واسم والدها على شفتيها، ولكنها شعرت بالحماية بين ذراعيه.

استيقظت مينا فوجدت الظلام حولها ولكنها كانت تشعر بالدفء والهدوء.. في البداية، تعجبت من وجود شخص ثقيل مستلق إلى جانبها يشدها إليه.. فكرت بغباء أنه كارسون.. ولكن، متى كان يعانقها كارسون هكذا؟ بل متى أحست بمثل هذه الرغبة في السعي إلى أحضانه لتحتمي به بشدة؟

أجفلت الذراع التي تحيط بها، وارتفع الرأس الأسود فبدا واضحاً في العتمة عندما قال لها صاحبه:

ـ آسف.. لكنك لجأت إلى الرجل غير المناسب.. أترتكبين دائماً مثل هذه الأخطاء؟

غايڤنغ كلينتيس! عضت على شفتها، تغمض عينيها بعجز وإحباط.. ثم قالت بغباء:

ـ ظننتك خطيبي.

ولكنها لم ترَ القسوة التي ارتفعت إلى عينيه أمام منظر صدرها وهو يعلو ويهبط بحركات قلقة..

قال ساخراً: «يؤسفني أن أخيّب أملك ولكنني لا أريد أن أكون بديلاً عنه».

سحب ذراعه عنها فشعرت فجأة بالحرمان. أردف: «كنت قلقة في غضون الليل وقد صرخت في منامك ولكن لم يكن من تنادينه كارسون». إلى ماذا يلمح؟ أيقول إنها صرخت باسم رجل آخر؟.. حبيب آخر؟ كيف له هذا؟

ـ لا أظنني الرجل الأول الذي يسمعك تصيحين باسم أبيك «دادي!» بهذا الصوت المستوحد الرقيق.

فجأة غيّر الموضوع قبل أن يفسح لها مجالاً للرد.

ـ يؤسفني ألا يكون في حقيبتك شفرة حلاقة.

تركها تغيير دفة الحديث غاضبة لكن غير قادرة على الدفاع عن نفسها.

نظر بسرعة إلى ساعته:

ـ السابعة.. أتساءل عما إذا كانوا ينوون إطعامنا هذا الصباح.. أوه.. لن يتركونا نموت جوعاً لأن موتنا لن يفيدهم. ولا بد أنهم تكبدوا مشقة في تجهيز هذا المكان.. وأتساءل متى سيحتاجون إلى المؤن.. لا يمكنهم تخزين أطعمة كثيرة هنا خاصة وأنهم مضطرون لحمل كل شيء بأيديهم. يجب أن نأخذهم على حين غرّة، ونراقب روتين حركاتهم.

كانت على وشك ارتداء القميص الفضفاض حين انتزعه منها وقال آمراً: «لا.. لا ترتديه..».

فضحت تعابير وجهها ما تفكر فيه، فضحك:

ـ لا تقلقي.. لن أعتدي عليك.

سمعت أصواتاً خارج الباب، ثم طقطقة القفل.. تجاهل النظرة الوجلة التي أطلقتها نحو غايڤنغ، وعندما دخل الرجل حاملاً صينية طعام ورآها ومضت عيناه برغبة متأججة جعلت دمها يجري بارداً في عروقها. توسلت عيناها إلى غايڤنغ أن يحميها، ذلك أنها تذكرت التحذير الذي أطلقه القائد حين احتجزهما.

لم يخيب غايڤنغ أملها بل وقف بينها وبين نظرة الرجل، يحميها من الرغبة الحارقة في عينيه.. كانت ذراعاه حاميتين وهما تطبقان عليها وفي هذه المرة لم تتراجع أو تحتج مع أنها لم تكن مستعدة لدفء أصابعه السمراء التي تسللت إلى ما وراء عنقها، أو

لردة فعل جسمها.

صاح غايڤنغ بعدما أقفل الرجل الباب برضى كامل:

ـ عظيم.. سيعزز ما رآه إيمانهم بأننا حبيبان كما سيذكر أصدقاءنا بما هم محرومون منه.

ـ ماذا تعني؟

ومن حسن حظها أنه لم يقل لها ما يعنيه ساعتئذ.

مرّ اليوم الذي قضيا جزءاً منه في الكهف، والجزء الآخر في الكهف الرئيسي مع حراسهما الذين قامروا بأموال صغيرة، ودخنوا السكائر وشربوا المرطبات، وهم يستمعون إلى الراديو الذي حملوه معهم متوقعين سماع شيء عن الاختطاف.

حين مر على سجنهما ثلاثة أيام، بدأت مينا تفقد الأمل بالتحرر. ولأن غايڤنغ لم يعد إلى ذكر الهرب، استنتجت بأنه غيّر رأيه بعد دراسة المخاطر التي قد تواجههما.

لكن كان عليها أن تكون أكثر ذكاء.

في الليلة الرابعة وفيما هي على وشك التسلل إلى كيس النوم قال لها فجأة:

ـ لا تنامي الآن.. أريد التحدث إليك.

* * *

٤ ـ من يموت أولاً

عقدت مينا ذراعيها حول ركبتيها وحدقت إليه. كانت لحية خفيفة قد كست ذقنه مع أنه أقنع أحد رجال العصابة بتزويده بشفرة حلاقة، ولكن ذاك الرجل لم يسمح له باصطحابها معه، فكان أن نما الشعر الأسود شيئاً فشيئاً. والليلة، كالعادة، كان منظره يزيد إحساس مينا بالأشياء الحميمة التي يتشاركانها.

ـ سينزل غداً بعض الرجال إلى البلدة ليحملوا مؤناً. سمعتهم يتحدثون عن ذلك بلغتهم المحلية التي تشبه كثيراً لهجة «الكريول» الفرنسية، واستطعت فهم معظم ما كانوا يقولون.. سيبقى هنا رجلان يحرساننا. لذلك «يجب» أن نهرب غداً مينا..

وشدد على كلمة «يجب» ثم أضاف:

ـ ربما هي فرصتنا الوحيدة.

ـ لكن كيف سنتمكن من هذا؟ فهما مسلحان ونحن لا نعرف طريق الخروج من الكهوف!

ـ أعرف الطريق.. أما الحارسين.. ألا تريدين الهرب؟

ـ بلى!

ـ عظيم إذن.. اصغي إلي.. غداً حين يأتي الحارس حاملاً الفطور أريد منك إلهاءه حتى أحصل على بندقيته.

www.liilmanga.com

- إلهاءه؟

تغضن جبينها بالارتباك.

- آه، هيا الآن.. هل تريدين أن أفسر الأمر لك أنت لست تلك الفتاة الجاهلة البريئة مينا.. وثمة طريقة نارية واحدة مؤكدة للنجاح في إلهاء الرجل. لا حاجة إلى السماح له بلمسك إن كان هذا ما يقلقك... فالطريقة التي كان ينظر إليك بها في الأيام الماضية تدل على أن غمزة واحدة من هاتين العينين الرماديتين قد توقعه في الفخ، خاصة إذا رافق الغمزة حركة مثيرة.

اختلط الخوف بالاشمئزاز فصاحت:

- لا..! لا يمكنك توقع هذا مني!

- إنها الطريقة الوحيدة.. إن بقينا هنا مدة أطول فلا أضمن بقاء يديه بعيدتين عنك، سمعت ما قاله قائدهم.. مرت أسابيع طويلة لم يقتربوا فيها من امرأة وأنت بدون شك لاحظت كيف ينظر الرجل إليك.

- قلت إن ما من أحد منهم سيمسني.

- نسيت مدى تأثير الحرمان في أمثالهم.. الحياة التي يحيونها تحرمهم من تمدنهم.

- لا أستطيع فعل هذا!

- يجب أن تفعلي.. تظاهري أنه خطيبك.

ظلت مينا بعد وقت طويل على نوم غايڤنغ مستيقظة تحدق إلى الظلام. أظافرها منغرزة في راحتي يدها.. لقد لاحظت الطريقة التي كان ينظر الرجال فيها إليها، خاصة من كان يحمل إليهم الطعام وكثيراً ما ثارت غضباً بسبب نظرته الوقحة إليها. هل غايڤنغ على حق؟ إن بقيا هنا.. تهرب تفكيرها من تكوين صورة

لمضمون ما قال.. ألا يكفيها تحمل الإذلال، بإجبارها على مشاركته هذه الزنزانة.. هل ستضطر الآن لتشجيع رجل على الاعتداء عليها.

اقتنعت أنها لن تنام، ولكن ما فوجئت به هو غايڤ الذي كان يهزها لتستيقظ. بقيت مستلقية على ظهرها للحظات، تحدق إليه، وقد سمرها اخضرار عينيه: ألا يستولي الحيوان المفترس على فريسته بهذه الطريقة؟ ألا يستخدم قوة عينيه ليخدر الفريسة ويحرمها من الإحساس بوجوب الوقاية؟

قالت له بخشونة: «لن أستطيع فعل هذا غايڤ».

- بل تستطيعين وستفعلين.

لم تكن الكلمات الهادئة تقبل أقل معارضة ولكن لم تكن أيضاً آمرة مسيطرة بل مطمئنة هادئة وكأنها كلمات أب إلى ابنة قلقة من قدرته على القيام بمهمة صعبة.

بعد لحظات وفيما هي تفكر أترتدي القميص الفضفاض أو التي شيرت.. أعطاها غايڤ القميص وقال لها:

- ارتدي هذا.. وساعديني على لفّ أكياس النوم. سنستفيد منها إن تمكنا من الهرب.. فلا أدري كم سيطول الوقت قبل الوصول إلى بر الأمان.

سمعا وقع أقدام فحاولت مينا السيطرة على الارتجاف الذي تصاعد إليها مع كل خطوة يخطوها ذاك القادم.

ولكنها همست، تحس بشجاعتها تهجرها:

- وكيف تعرف أن الآخرين رحلوا؟

- كانوا ينوون الرحيل مع مطلع الفجر.. وهم لا يحملون إلينا الفطور إلا بعد وقت طويل من هذا.

نظر إليها لحظة وهما يسمعان الرجل يعبث بالأقفال، وقبل أن تمنعه، فتح لها ياقة القميص، ليعري لها كتفيها، متجاهلاً شهقة الاحتجاج الحادة.. وهمس لها:

ـ أنت تمثلين دوراً.. رأيت هذا يحدث آلاف المرات، وأنت تمثلين للحصول على أفضل الجوائز وأثمنها، حياتك!

ما إن انفتح الباب حتى ابتعد عنها تاركاً إياها تواجه نظرة حارسهما الشبقة. سرعان ما حطت عيناه على بشرتها المكشوفة فومضت ألسنة صغيرة في عينيه فذعرت.

شعرت في اللحظة التالية بأنها ستفقد الوعي ولكنها بجهد يفوق قدرة البشر، أجبرت شفتيها على أن تفترا بابتسامة مغرية ثم لم تلبث أن مدت يدها إلى ذراع الرجل.

كانت ردة فعله فورية فقد طغت حدة أنفاسه عليها وهو يمسكها من خصرها ووجهه الملتحي يكاد يلتصق بوجهها..

قال متفاخراً: «أتريدين رجلاً حقيقياً؟ حسن جداً.. ستجدين مبتغاك مع رينغو».

حرقت أنفاسه وجهها واتجهت يده الجسورة من خصرها إلى ما فوقه، فأغمضت عينيها برعب واشمئزاز حقيقيين. وتقلصت معدتها وتقوقع جسدها اشمئزازاً تحت تأثير يديه. أدارها الرجل، فلمحت وجه غايثنغ.. كان غير مألوف في قسوته وبروز عظامه.. رأت عينيه تومضان كحجر الجاد الأخضر في وجه خلا فجأة من كل لون ثم ما هي إلا حركة قصيرة حتى رقص النور فوق نصل سكين انتزعها من جعبة الرجل، ثم غرزها في صدره فسقط الرجل عليها وكاد يسحقها على الأرض، ولكن غايثنغ دفعه عنها ورفعها لتقف.. تفوه بكلمات لم تسمعها، لأن تفكيرها كان يضج

بصرخات جسدها الصامتة، وبشهقة الرجل الذي مات لتوه بسبب رغبته فيها.

ـ مينا!

أحست بألم فجائي شلّها ثم شعرت بألم في وجهها لأنه صفعها حتى تخرج من ذهولها. سرعان ما تلاشت الصرخات، ليحل مكانها صوته الحازم:

ـ فلنسرع. لفي كيس نومك.. والطعام.. يجب أن نسرع.. أعطيني حقيبتك، وكيس النوم. واحملي الآخر.. لا.. لا تنظري إليه.

تقدم بهدوء نحو الباب، ثم عاد، وبندقية الرجل فوق كتفه.. لأول مرة تراه على حقيقته جندياً، لقد بدا لها أشبه بقناص مفترس. وعرفت بلا أدنى شك أن البندقية ليست سوى لعبة بالنسبة له. لقد شاهدت كيف قتل رجل العصابات بسهولة قصوى. وارتجفت أوصالها..

قال لها محذراً وهو يحثها إلى الخارج:

ـ بهدوء.. اتبعيني فقط.. أفهمت؟

إن له ذاكرة فوتوغرافية إذ قادها بدون تردد إلى الكهف الرئيسي، الذي كان فارغاً.. لم يكن لدى مينا فكرة عن الطريق التي سلكوها في دخولهم، لكن غايثنغ بدا غير متردد أبداً.

كانا على مسافة ثلاثة ياردات من المدخل حين توقف قلب مينا لرؤية شخص يبرز إلى الكهف.

تحرك غايثنغ بسرعة الضباب فلم يره الرجل الذي تلقى ضربة على رأسه أوقعته أرضاً بطريقة أكدت لها أنه مات أيضاً.

قال لها وقد بلغا النفق:

ـ من الغباء تركه حياً ليلحق بنا.. إن كنا محظوظين استطعنا الابتعاد قبل أن يعود الباقون الذين قد يصلون بعد يوم أو يومين على الأكثر. لن أستخدم الممر الذي سلكوه عندما صحبونا إلى الكهف فعددهم يفوق عددنا.

ـ ولكن.. كيف سنجد طريقنا؟ ليس لدينا خرائط أو بوصلة.. لقد قال قائد الفرقة إنه لا يعرف الممرات إلا بضع رجال.

ـ هذا صحيح.. ولكن هناك طرق كثيرة.. أمامنا الشمس والنجوم. وإيجاد طريق العودة هو آخر ما يهمنا لأن غايتنا الأولى والأخيرة ألا يجدوننا.

حين خرجا أخيراً إلى ضوء النهار.. كاد النور يعمي بصرها، فوقفت ترفرف بعينيها.. ثم انهمرت فجأة دموع الراحة من عينيها.. فقد كانت مع كل خطوة تتوقع مواجهة خاطفيهما هذا عدا خوفها الطبيعي من الأماكن المغلقة. فانهمرت الدموع بلا انقطاع على وجنتيها ووقفت ترتجف غير قادرة على الحراك.

ـ مينا!

سمعت صوت غايثنغ النافذ الصبر، فنظرت إليه بصمت فسمعته يشتم بصوت منخفض.. ولكنها لم تشعر إلا بدفء ذراعيه حولها، وبأنفاسه فوق صدغها، وبعضلات صدره الصلبة فتركت نفسها تسترخي عليه.

رفعت رأسها، تريد أن تقول له إنها بخير.. لكن النظر إلى الجاد الملتهب الأخضر كان بمثابة الغرق في بحور خضراء ثلجية.. اندفعت لا إرادياً ترفع أناملها تتلمس وجهه. اختنقت أنفاسها بشكل غريب، وتصاعدت أحاسيس غريبة إلى كيانها وأخذ

قلبها يخفق بسرعة خافقة... افترّ ثغرها بدعوة غير إرادية ثم راقبت هبوط رأسه نحوها، ولمعان عينيه القاسيتين الخاليتين من أية رحمة.

فجأة، اختفى وجه غايثنغ وحل محله وجه رجل العصابات.. انقلبت السعادة إلى غثيان.. وجف الدم في وجهها، وارتجفت اشمئزازاً.

ـ ماذا هناك..؟

همست بكلمات تحمل صدى الرعب:

ـ ذلك الرجل.. الطريقة التي لامسني بها.. الطريقة التي نظر بها إليّ.

رد بحزم: «لقد انتهى الأمر فانسيه».

سألت بجنون: «وكيف أنسى؟ كلما احتواني رجل بين ذراعيه سأتذكره... وستتقزز نفسي...»

ـ هذا يكفي! تتصرفين وكأنك لم تذوقي قط طعم العناق أنت امرأة مخطوبة..

ـ ولذلك لا يُسمح لي بأية مشاعر.. أية..

ـ سنتحدث عن هذا في وقت آخر..

أمسك ذراعها يجرّها إلى الأمام مردفاً:

ـ.. أما الآن فأنا راغب في وضع أوسع مسافة بين هذه الكهوف وبيننا.. ماذا يقلقك؟ عدم موافقة خطيبك على ما فعلت؟ أنا واثق أنه سيتفهم ما فعلت حين تقولين له إنك كنت مخيرة بين هذا وبين الموت، كما أنه لم يحدث شيء في مطلق الأحوال.

ربما لم يحدث شيء في السياق الذي يعنيه.. ولكن ما جرى لها مع ذلك الرجل، كان التجربة الأولى مع رجل غريب، لذا

تشعر الآن بأنها ملوثة.

لقد ظنت مينا أنهم وصلوا إلى الكهوف بسرعة قصوى ولكن رحلتهم تلك لا شيء يذكر، أمام السرعة المرهقة التي مارسها غايڤنغ بعدما تخلصا من الحراس.. وقد ساعدهما منجل كبير أخذه من الكهف على شق طريق لهما عبر أعشاب الغابة وجذورها النامية. لحقت مينا به.. معجبة بالحزم الذي كان يقرر فيه اتخاذ الطريق الذي عليهم اجتيازه:

كانت كل عضلة في جسدها تنتفض ألماً واحتجاجاً على الضغط الذي مارسته ولكنها لم تجرؤ على طلب الراحة خوفاً من تقاعس جسدها عن المضي. أصبح الممر الذي سلكاه موحلاً، ومع ذلك مشت بعناد تتبع خطوات غايڤنغ.. مضت عدة دقائق قبل أن تدرك أن الهدير البطيء المكتوم الذي سمعته، هو خرير المياه.

صاح غايڤنغ بلهجة انتصار:

ـ هذا ما كنت أبحث عنه!

وصلا أخيراً أمام شلال يتساقط بغزارة فوق الصخور.

ـ سنتبع مجرى المياه فإن كنا محظوظين وصلنا إلى الساحل.. علمت أن في الغابة جداول جارية.

سألته مقطوعة الأنفاس، محاولة عدم الأنين.

ـ لكن كيف وجدتها؟

ـ من حالة الأرض.. كانت آثار الحيوانات تدل على أنها تسعى وراء الماء.

لولا براعته وتدريبه لما وجدا هذا الجدول ولكنها رغم معرفتها هذه شعرت برعدة خوف خفيفة تسري في بشرتها.. إن

في هذا الرجل ما هو غريب غير مدجّن، وما هو ساحق الرجولة ولعل هذا الشيء الغريب هو ما يحثها على الهرب منه سعياً إلى الهدوء.

ـ مينا؟

لم تحس أنه كان يراقبها.. فقالت كاذبة: «أنا بخير».

ـ سنتوقف قريباً.. من حسن الحظ أن الجدول غير عميق مع أنه يجري بسرعة ولا نريد أن نخاطر. سنسير بمحاذاته قدر الإمكان.. فإن اقتفوا آثارنا حتى الجدول، فسيساعدنا السير في الماء على إبعادهم عنا.

فعلت مينا ما فعله غايڤنغ.. نزعت حذاءها وربطت شرائط الفردتين ووضعتهما على كتفيها.. فقال غايڤنغ بإيجاز:

ـ اخلعي الجينز لأن ذلك سيبعد البلل عنه.

فعلت ما طلب منها بأنامل مرتجفة، ومع ذلك شعرت بأن شيئاً غريباً يتحرك حياً فيها خاصة وغايڤنغ ينظر إليها متأملاً.

لم تدرك أن مشاعرها انعكست في عينيها، حتى قال:

ـ استريحي.. قد أكون جندياً فجاً غير مهذب، لكنني لا أشارك أمثالي في الرغبة في جسدك.. هذا تأثير المدينة عليّ! هل خاب أملك؟

ـ أنا مخطوبة لرجل آخر.. أتذكر هذا؟ أضف إلى ذلك أنني لا أحب الرجال الذين يمارسون العنف.

ـ وهذا يعني أن آثار جروحي تقزز نفسك؟ تذكري أنني اكتسبتها وأنا أحاول تحرير مدني بريء. لست مرتزقاً مينا ولست بطلاً، فما أفعله هو مهنتي.

صاحت غاضبة: «قتل الناس! ألا تدري أنه لولا وجود أمثالك

لما كان هناك إرهاب؟»

ارتفع حاجباه وهو يستدير وسط الماء لينظر إليها:

ـ ألا تعرفين هذا؟ إنها القصة القديمة مينا.. من خُلق أولاً: الدجاجة أم البيضة.. لا يمكنك استخدام عذوبة المنطق مع رجال مسلحين.

همست ترتجف فجأة رغم حرارة الغابة:

ـ ألا تشعر بالخوف أبداً؟

ـ الخوف؟

في البداية ظنت أنه يسخر منها. ثم رأت تعبير عينيه.. وقال لها:

ـ بالطبع أخاف.. فأنا أشعر بالخوف كلما قمت بمهمة، أو كلما عدت من مهمة.. حين أخرج يكون الاندفاع لصالحي.. أما حين العودة...

استدار ووجهه متجهم.. وكأنه نسي وجود مينا وهو يتمتم ببطء:

ـ العودة كمن يخوض في الجحيم.. هذه المرة نجوت.. لكنك تترك دائماً شخصاً ما وراءك.. شخصاً عزيزاً على قلبك وفي كل مرة يموت جزء منك.. ثم تسألينني إن كنت لا أخاف.. أصبت بطلق ناري أثناء فرارنا ولولا مساعدة رجلين من رجالي لبقيت ملقياً في الأدغال الأفريقية مع الآخرين. هذا ما قالوه وأنا في المستشفى، فتوسلت إليهم ألا يعيدوني إلى الأدغال ثانية.. إلى هذا الحد كنت خائفاً.

لم تستطع مينا أن تقول شيئاً بسبب الغصة التي قبضت على حنجرتها وشعرت بأن تهوراً ما يدفعها إلى مواساته وكأنه طفل

صغير.. وهذا إحساس سخيف أمام ما تراه من قوته ورجولته..

تابع يقول: «إنه أحد الأسباب التي دفعتني إلى هذا المكان.. أردت أن أثبت لنفسي أنني قادر على مواجهة الأدغال مرة أخرى وأنني قادر على الكسب».

قالت بهدوء: «وهذا ما فعلته؟»

ـ لم ننج بعد.. أتشعرين بالقلق الآن وقد عرفت الحقيقة؟

ردت بصدق: «لا».

كان المغيب قد أرسل سدوله حين قرر غايفنغ التوقف. لقد سارا عدة أميال في مياه الجدول، لكنهما اضطرا للخروج منه عندما قوي التيار. قال لها مشيراً إلى فسحة بعيدة:

ـ سننام هناك. لئلا يخفي خرير المياه وقع أقدام من قد يقترب منا.. ولن نستطيع المخاطرة بإشعال النار.. ولن نحتاج إليها.. ما رأيك بالأفوكادو والجوز للعشاء؟ لن نقلق بهذا الشأن!

وأشار إلى أشجار تحمل الصنفين..

تمتعت مينا بالفاكهة، لكنها تاقت إلى جرعة ماء، ورفض غايفنغ السماح لها بلمس مياه الجدول.

ـ أعرف أنها تبدو نظيفة ولكن هذا لا يعني أنها كذلك.. لا أريد أن تعيقي طريقي بسبب المرض.

اضطرت للاعتراف بالمنطق.. وسألته إذا كانت تستطيع الاستحمام على الأقل، قبل النوم. فالمياه كانت نادرة في الكهف.. وبسبب وجوده قريباً منها، وبسبب خجلها الطبيعي، اكتفت بالاغتسال بشكل سطحي.

أما الآن، وبعد مسيرتهما الطويلة، تاقت إلى الشعور بالانتعاش الذي يولده الماء النظيف على جسمها. كانا قد أعدا

العدة للنوم في مكان لا يبعد كثيراً عن بركة طبيعية.. لكن غايڤنغ سرعان ما بدد لها أحلامها. فقد قال لها بعذوبة:

ـ هيا.. اذهبي.. سأرافقك.

بدا أنه لا يشاركها ترددها أو خجلها.. فقد أخذ ببساطة ينزع قميصه، وظهره لها، ليكشف عن عضلاته القاسية.

أشاحت بوجهها عنه لأن اللون القرمزي على وجنتيها دليل واضح على خجلها.. ولم تستدر ثانية إلا بعدما سمعت صوت ارتطام جسمه بالماء.. تخلت على مضض عن نيتها الأولى في الاستحمام في المياه الرائعة، واكتفت، بالسباحة باحتراس في المكان الضحل، كارهة الاقتراب من المكان العميق ومن غايڤنغ.

خرجت من المياه بدون أن تنتظر خروجه وجلست على الصخور التي صقلتها حركة المياه الدائمة المتدفقة.. ثم عادت مسرعة إلى المساحة التي وضعوا فيها أغراضهم.. كانت تكافح لتدس جسمها المبلل في كيس النوم حين عاد غايڤنغ ووجهه متجهم وقميصه مربوط إلى خصره، وشفتاه مشدودتان بقوة.. قال بدون مقدمات:

ـ ماذا تخالين نفسك فاعلة؟ لسنا في نزهة أطفال تلعبين فيها ما تشائين.. علينا من الآن فصاعداً البقاء معاً. أتفهمين هذا؟

ـ لم أرتكب جريمة عندما عدت رأساً إلى هنا.. أنا لست أحد رجالك.. ولست مضطرة لإطاعة أوامرك!

رد بلطف أثار خوفها.

ـ هذا صحيح.. لست مضطرة.. ولكن إن رغبت في الحياة أنصحك بإطاعتي.. ماذا كنت ستفعلين لو عدت إلى هنا، ووجدت أصدقاءنا بانتظارك؟

كشف ابيضاض وجهها حقيقة مشاعرها، مع أنها حاولت جاهدة ألا تتذكر أحداث هذا الصباح.. أكمل غايڤنغ متشدقاً:

«بالضبط ما تفكرين فيه!»

أعلمها بذلك أنه يعرف ما يدور في خلدها.

ـ وبناء على ذلك لن تتحركي من الآن فصاعداً بدون إخطاري. مفهوم؟

إنها تكرهه.. هذا ما فكرت فيه على مضض وهي تحاول إيجاد الراحة في كيس النوم الضيق.

كانت الأرض تحتها قاسية.. قبل أن يدخل غايڤنغ إلى كيس نومه، شاهدته يتجول بهدوء في المكان مركزاً وسائل إنذار بدائية، كما قال لها مضيفاً بأن عليهما إذا أرادا التقدم بشكل سريع النوم جيداً في الليل.. والاحتياطات التي يقوم بها ستوقظه في الوقت المناسب إن تسلل أحد.

قال لها حين لاحظ ذهولها:

ـ إنها خطط بسيطة للبقاء على قيد الحياة.

غطت في نوم عميق وهذا ما لم تتوقعه ولكنه لم يكن نوماً مريحاً.. فقد سيطرت عليها ابتسامة رجل العصابات وهو يلمس جسدها. صاحت «لا!» خرجت الكلمة من شفتيها فأوقظتها بحدة ولكنها وجدت نفسها مسمرة بأصابع من فولاذ إلى الأرض.. طغى الذعر على تفكيرها السوي وظنت أن هذا الثقل هو لرجل العصابة.. ولكن الصرخة التي كادت تطلقها قُطعت بحدة بيد وضعت فوق فمها: «مينا؟»

أعادها الصوت الحازم إلى الواقع.. وتلاشى التوتر من جسدها بالسرعة نفسها التي تملك بها.

ارتجفت وقالت بصوت أجش من المشاعر:

ـ أنا آسفة.. رأيت كابوساً، رأيت ذلك الرجل..

ارتجفت، مجفلة لأن غايڤنغ جلس فجأة ولكنه لم يتركها بل ضمها حتى توسد رأسها كتفه.

ـ أيزعجك إلى هذا الحد؟

أعطاه وجهها الرد. وجعلته انتفاضتها المذعورة التي تولدت حين مد يده ليرجع خصلة شعر عن عينيها يتوقف وينظر إليها بحدة.. ثم رفع ببطء متعمد يده إلى وجهها، ممرراً أصابعه بلطف على بشرتها.

بدا لها أن أنفاسها انحبست في خناقها.. توتر جسدها كله.. وأصبحت عيناها كعيني حيوان صغير ضعيف عالق في فخ يتوق للفرار. فتراجعت عنه.. تنتفض وكأنها دمية، وتلاشى اللون من وجهها تاركاً إياه شاحباً معذباً ثم ما لبث الارتجاف أن سرى في أوصالها من ذكريات الصباح، اقتراب الرجل منها وملامسته لها وطعنة غايڤنغ له.. ثم الدم.. تأوهت عميقاً كمن يلاحقه الرعب المميت.

ـ مينا.. سيكون كل شيء على ما يرام.. وعندما تعودين إلى الديار فستنسين كل شيء بين ذراعي خطيبك.

ـ لا!

ارتجفت مشمئزة فلن تستطيع تحمل لمسة كارسون لها بل لن تتحمل لمسة أحد أبداً!

قال غايڤنغ وكأنه يكلم نفسه:

ـ غريب.. قد أفهم ردة فعلك لو كنت بدون خبرة.. لكنك لست هكذا.. أنت امرأة مرغوبة جداً وفي العشرينات من عمرها.

ومن المفترض ألا يكون خطيبك هو الرجل الوحيد في حياتك.. إلا إذا كنتما مخطوبين منذ تركت مقاعد الدراسة. لقد عرفت مؤخراً أن من الأفضل مواجهة شياطيننا والتخلص منها قبل أن تصبح قوية.

أمسكت أصابعه ذقنها، يرفع رأسها إليه، وعيناه تكادان تنوّمانها، منعتها أصابعه القاسية من الحراك واستحوذ عليها رعب بدائي واشمئزاز عنيف فتحرك رأسها من جهة إلى أخرى، حاولت بيأس التخلص من ضغط أصابعه الدافئة، ثم اشتبكت أصابعه في شعرها ليرجع رأسها إلى الوراء، يلحق به جسمها، شهقت شهقة دهشة ثم أرسلت الأحاسيس إليها موجة من المشاعر.

اصطدمت اليدان اللتان رفعتهما لتدفعه عنها بكتفيه ولكن سرعان ما هوتا بعيداً.

تمتم غايڤنغ بعذوبة، ويده تمسك بأصابعها المرتجفة، لتعيدها إلى صدره:

ـ المسيني وانسي ما حصل هذا الصباح.. إنسي كل شيء إلا هذا..

و «هذا» كانت أصابع رشيقة تلمس بعذوبة كتفيها وعنقها.. سرعان ما انطلق في داخلها تيار من المشاعر لم يكن لديها القدرة على التحكم فيه.

ـ ألم تنسي شيئاً؟

صدمها صوته فارتفع رأسها إلى فوق، ثم اتسعت عيناها بعدما أخرجتها كلماته من أحلامها..

ـ خطيبك.. كدت للحظات تخدعيني.. ولكن تجاوبك لم يكن يدلّ على الخوف الذي ادعيته. وأرفض أن أكون بديلاً عن أي

رجل آخر.

صاحت، تكذب بجنون:

ـ لن تسدَّ أبداً فراغ كارسون..

وارتدت عنه، ترعبها المشاعر التي تعرفت إليها، ثم كافحت لتخفي شحوبها الذي ولده تفرس عينيه العديمتي الرحمة أو الإشفاق.

ماذا دهاها بحق الله؟ لقد تصرفت وكأنها.. كأنها.. امرأة واقعة في الحب!

تسللت الفكرة إلى رأسها كتسلل الأفعى إلى جنة عدن، فكادت تزهق أنفاسها. أتحبه؟ كيف لها ذلك؟ وهي لم تتعرف إليه إلا منذ بضعة أيام! هذا مستحيل.. المدة غير طويلة للوقوع في الحب.

ولكنها مدة كافية لتعرف أنه يملك شجاعة لم تشهدها في رجل آخر وعزماً وإخلاصاً لمبادىء عظيمة؛ مدة كافية لتعرف شيئاً من مخاوفه الخفية، وأفكاره الحميمة.. إذن لماذا المدة غير كافية للوقوع في حبه؟

* * *

٥ ـ صرخة ضائعة

انبلج الفجر في روعته الحية فراقبته مينا التي استيقظت باكراً، منتظرة أولى إشعاعات الشمس.. كان غايڤنغ إلى جانبها نائماً. ليلاً اندفع إلى خارج كيس النوم واستطاعت رؤية استرخاء عضلاته تحت بشرته المجروحة الممزقة. وبدأ قلبها يخفق ببطء وقوة وهي تستعيد ذكرى تلك اللحظات وهي بين ذراعيه في الأمسية السابقة.. والحقيقة التي أجبرت على أن تواجهها قبل وقت طويل من نومهما.. إنها تحبه.. ربما هذا الشعور جنون ولكن جسمها عرف الحقيقة قبل أن يعرفها عقلها وقد تقبل الحقيقة بعد صدمة مبدئية.

يمثل غايڤنغ كل ما لا تحبه مينا في الرجال.. فهو عدواني ومثير. ومع ذلك فكيف لها أن تنكر استجابتها الفورية لعدوانيته وإثارته.. ربما هذا دليل على أن بذرة عميقة في أعماقها عرفت بالبديهة الخطر الذي يمثله.

تحركت بقلق في كيس نومها.. يعذبها شوق غامر ويدفعها إلى مد يدها لملامسة خطوط وجهه ولحيته النامية.

الإغواء لا يقاوم تقريباً.. فقربها منه يعذبها ويبعث إليها الاضطراب.. والعادات القديمة التي غرستها فيها العمة مارولا،

تسخر منها لأنها سمحت لنفسها بالوقوع تحت سحره. إنه رجل مذهل جذاب يعرف خير معرفة مدى جاذبيته التي أضافت إليها مهنته الخطرة الكثير.

لماذا اختارها من بين عشرات النساء الجميلات اللاتي يرغبن فيه؟ ولكن لولا الواقعة التي فرضت عليهما البقاء معاً لما نظر إليها، فطالما أكدت لها عمتها أنها تفتقر إلى الجمال.

تحرك غايڤنغ في منامه، فكشفت الحركة ظهره. أما هي فارتجفت أمام مرأى الجرح الذي مزقه اعتداء لا رحمة فيه.

جعلها اندفاع مفاجيء تفتح كيس النوم ولم يكن في رأسها إلا فكرة واحدة وهي الابتعاد عنه. ستسبح في البركة فعلّ السباحة تهدىء عواطفها.

لم تكن صفحة الماء تتحرك إلا قليلاً فتوقفت مينا قرب الماء. ثم نزلت في المياه المنعشة.

ما لبثت أن طفت على ظهرها مغمضة عينيها أمام أشعة الشمس..

ـ مينا!

قطع النداء العزلة الهادئة حولها وشتت أحاسيسها. استدارت تسبح باتجاه الشاطىء.. لكنها تأخرت لأنها لمحت جسداً أسمر رشيقاً يرتدي الجينز يقف على حافة الماء.. قبل أن يثب بقوة إلى المياه متوجهاً إليها. راقبته مسحورة مأخوذة حتى أدركت أن تعابير وجهه هي تعابير شخص غاضب غضباً شديداً وهذا ما ثبت لديها أكثر من الطريقة التي أمسك بها معصمها.

ـ ماذا تفعلين بحق الله؟ ماذا قلت لك بالأمس؟

تذكرت أنه حذرها من الابتعاد عنه، فقالت تدافع عن نفسها:

ـ كان المكان هادئاً آمناً.. وأردت السباحة.. لم أستطع السباحة ليلة أمس لأنك كنت هنا.

رد بوحشية: «هكذا خاطرت هذا الصباح بأن يجدك رجال العصابات؟ ماذا دهاك؟ أتتعمدين إثارتي؟ أم أنك حمقاء غبية؟»

لقد تأخر الوقت على الشرح بأنه أساء فهمها.. إذ بدأت تشعر بشكل ظاهر، بقربه منها.

فردت باضطراب:

ـ لا هذا ولا ذاك.. لم أرد إلا السباحة وحدي.

كانت شتائمه في وقت آخر ستجعلها تتورد خجلاً. أما الآن فلم يحدث ذلك بل حاولت السيطرة على ارتعاشة كيانها كله. لقد جعلتها العاطفة والصدمة تشعر بعجز كامل أمام أصابعه السمراء الملتفة حول معصميها.

ـ حسناً.. حسناً لقد حان وقت الرحيل. لا نستطيع إضاعة الوقت..

وكأنما أحس بترددها عن اللحاق به، فعبس متأملاً رأسها المحني، وشعرها الأشقر الطافي فوق الماء كتمثال فينوس..

سألها بعذوبة: «أبك شيء؟»

لكنها لم تنخدع بعذوبة كلامه لأنه رجل مكسو بحديد مشبع بالفولاذ وعليه لا يمكن إلا لأشعة لايزر اختراقه.. فتمتمت:

ـ اذهب، وسألحق بك..

ـ صحيح؟

كان يسخر منها بوضوح.. ثم تلاشت السخرية وحل محلها الازدراء القاطع.

ـ فلنصحح أمراً واحداً.. لا أهتم بالألعاب التي تلاعبين فيها

خطيبك. إنما إياك وتجربة هذه الألاعيب معي.

ـ لم أكن ألاعبك!

تغلب الغضب على الحذر، وتحول لون عينيها من الرمادي إلى الليلكي بسبب توتر مشاعرها.. وأخذت قبضتاها الصغيرتان تضربان صدره.. كيف يجرؤ على التلميح بأنها تتعمد إثارته؟ أكملت ساخطة، وقد شاهدت نظرة عدم التصديق في عينيه.

ـ لو كنت تعرف عن النساء ما تدعيه لعرفت أنني لست من النوع اللعوب!

ضحك، وقال متعجرفاً:

ـ حبيبتي، بل أنت ذلك النوع بعينه ولكنني لن أضيع وقتي في مجادلتك.

قبل أن تتمكن من منعه، رفعها من البركة وحملها بين ذراعيه وتوجه بها إلى الشاطىء. كانت المياه تغمرهما حتى الكتفين فاضطرت للتعلق بعنقه قابضة أصابعها في شعره الأسود الكثيف.

لم يتوقف حتى وصل إلى المكان الذي أمضيا فيه ليلتهما وهناك وضعها بطريقة غير لطيفة.. أبعدت عينيها عنه، يغمرها إحساس بالضعف شبيه بذاك الذي خبرته في الليلة السابقة.. افترضت أن خوضه غمار المياه دليل على اهتمامه بسلامتها.. ولكنها تذكرت تعابير وجهه عندما أصبح قربها، فاضطرت إلى الاستنتاج بأن الغضب لا الإشفاق هو الدافع لتهوره.

ـ مينا!

لا بد أنها لها قرينة من الجن تجعل غايڤنغ يلفظ اسمها بهذه الرنة المميزة.. كان يقف إلى جانبها وأصابعه الباردة تمس جبينها، وحاجباه معقودان ولسانه يمطرها بالأسئلة:

ـ ما الأمر؟ هل أنت مريضة؟ بشرتك ساخنة إنما ليس إلى درجة الحمى. أتشعرين بألم في معدتك؟ أتحسين بالغثيان؟

تركت أصابعه جبهتها لتلامس معدتها.

ـ أنا بخير.. شكراً لك.

أهذا الصوت الأجش هو صوتها فعلاً. حاولت دفعه عنها، لكنها كانت ترتجف.. فقال بقلدها ساخراً بطريقة وحشية تقريباً:

ـ أنا بخير شكراً لك.. أنت مثال البرودة.. السيدة المسيطرة على نفسها.. لم يحدث أن ضعفت قليلاً إلا ليلة أمس.. هل ستخبرين خطيبك العتيد المبجل؟ هل أنا محق لأنني نعته بالمبجل.. مينا؟

أمسكت يده بيدها التي تحمل الخاتم:

ـ دعيني أرى.. إنه من المدينة، صحيح ومناسب.. طموح.. وستكونين له الزوجة المناسبة.. ربما من الأفضل ألا تخبريه شيئاً فقد يؤثر ذلك في صورتك الكاملة أمامه.

ردت مرتجفة: «سيتفهم».

ـ وماذا سيتفهم؟ هل سيتفهم أن قناع المدينة ليس سميكاً كما نحب أن يكون؟ وأنك كدت تتهورين إلى درجة الوقوع في أحضاني؟

ردت يائسة لتنكر الحقيقة: «لم يكن ليحدث ذلك».

ـ أواثقة؟

بدت كلمته في الهدوء المفاجىء مرتفعة ردت بثبات، تتجنب عينيه «نعم».

ـ كاذبة!

لم تحس به يتحرك ولكنه فجأة أصبح على مقربة شديدة منها.

ـ لا تلمسني.. أكره هذا!

بدت صرختها أشبه بصرخة طفل مذعور ولكنها صرخة أشعلت ناراً خفية في نفسه فشعرت مينا بانقلاب في كيانه لأن ذراعيه ضمتاها إليه بعاطفة قوية عميقة استطاعت رؤيتها تحترق في أعماق عينيه، كما شعرت بها من خلال يديه اللتين عانقتا قدها الرشيق.

ـ أما زلت تكرهين ملمس يدي؟

ـ أجل.

أجبرتها كبرياؤها على الكذب، وأشاحت بوجهها بعيداً وهي تغمض عينيها.

لكن لمسة أصابعه على عنقها، دفعتها إلى فتحهما مجدداً.. ورغم توسلاتها الحارة، رفض أن يتركها، وأسرها بين ذراعيه..

تأوه بصوت أجش: «مينا.. أريدك!»

كان بإمكانها في تلك اللحظة الانسحاب بيد أنها عادت وغرقت في عالم النسيان ولم توقظها من غشوتها إلا كلمات غايڤنغ المتعجبة.

ـ لمَ أنت متوترة؟ استرخي..

اخترقت كلماته عالم حلمها فقالت: «لم يسبق أن وصل إليَّ رجل».

ابتعد عنها حالما سمع كلماتها وقال:

ـ لم أعرف أنك عديمة الخبرة! أيعرف خطيبك ذلك؟

شتتت كلماته القاسية أحلامها كلها، فنظرت إليه بحرارة متصاعدة لأنها عرفت أن سبب غضبه ينبع من واقع أنه ظنها امرأة مجربة، أما الآن فيبدو رافضاً التورط مع امرأة عفيفة طاهرة.

قالت له ساخرة: «لا.. لا يعرف شيئاً.. ولن يعرف.. مني».

سارا بصمت في الأدغال حتى ظنت أنها ستصرخ من التوتر. ليته يقول شيئاً..

مع تقدم النهار تفاقم التوتر بينهما وكادت أعصابها تنهار.. لن تستطيع احتمال ليلة أخرى معه. وهذه الفكرة وحدها هي ما جعلتها تستمر في المسير رغم تعبها الشديد وإرهاقها العميق. فجأة شعرت بأن الدنيا تدور بها وبأن معدتها تنقبض وتتقلص.

لقد جلبت العار على نفسها لأنها كادت تستسلم لرجل لا يريدها.. تلاشى ما أحست به من سعادة في لحظات حين امتنع عنها يسألها عن مدى معرفة خطيبها بقلة خبرتها، وكأن كل اهتمامه منصب على ما قد يقوله كارسون لو اكتشف أنها كادت تستسلم له. وبما أنها كانت تعرف أن غايڤنغ لا يخاف من رجل آخر، لم تستطع سوى أن تستنتج أن غضبه نابع من محاولتها خداعه بادعائها الخبرة. أو خوفاً من أن تلجأ إليه حين يحلّ كارسون خطوبتهما.

احترق وجهها أمام ظلم الفكرة مفضلة الموت على طلب شيء من غايڤنغ كليوبتيس.. أخذت تفرك ذراعيها بتعب، ثم تسمَّرت في مكانها قبل أن تدوي صرختها الحادة بشكل أرعب الببغاوات في السماء.

ارتد غايڤنغ متجهماً يسألها:

ـ ماذا هناك..!

تغيرت أساريره عندما رأى الاحمرار على ذراعها وسأل:

ـ ما هذا؟

ارتجفت مينا: «عنكبوت، كان ضخماً».

لسبب ما استمر وجه غايڤنغ في الابتعاد والتلاشي.. وطغى عليها فجأة نعاس غريب أثر في قدرتها على الإجابة عن السؤال الذي كرره.

ـ لا بأس.. قفي هادئة.

شاهدت بريق الضوء على حد السكين التي أخذها من رجل العصابات ولكن، السم الذي ضخه العنكبوت في دمها، خدر أحاسيسها، وراقبت غايڤنغ، وكأنها تحلم، يجر حدّ السكين فوق البشرة المتورمة، ثم يحني رأسه ليمتص الجرح بقوة.. ويبصق الدم..

وقال لها: «سنستريح الآن»

قالت كاذبة: «أستطيع الاستمرار».

ـ ربما.. ولكن السم سيخترق جسدك حتى أعمق أعماقك لذا عليك أن تستريحي.

فتحت فمها لتجادل ولكنها أقفلته ببطء بعدما أحست بدوار كبير.

كانت مخدرة الإحساس ولكنها شعرت بأنها تنظر إلى ما يحدث وكأنه يجري بعيداً وكأن روحها ارتحلت عن جسدها.

بعد مضي وقت غير بعيد عرفت كل شيء عن رحلة العودة إلى المدينة.. كان غايڤنغ قد رحل منذ وقت طويل، بعدما أودعها في مستشفى الجزيرة حيث كانت الممرضات يعتنين بها. لقد أخبرتها إحدى الممرضات كيف دخل غايڤنغ إلى القرية الصغيرة وهو يحملها بين ذراعيه، ثم وصفت لها كيف كان جسدها متوتراً ومتشنجاً من شدة الحمى التي سببها سم العنكبوت.. مع ذلك لم

تكن تذكر شيئاً عن الأحداث التي أدت إلى وصولهما إلى عاصمة الجزيرة محمولة على عربة يجرها حمار.

كان أول من شاهدته، بعد شفائها من الحمى بيني هولاند.. فقد مدد الزوجان عطلتهما عمداً ليبقيا معها حتى تسترد وعيها.. وأثر فيها لطفهما عظيم الأثر.

بيني هي التي أخبرتها بعدما تجنبت النظر إليها أن غايڤنغ غادر الجزيرة وأن كارسون لم يعرف بما جرى.. لأنها لم تعرف كيف تتصل به.. وكبتت مينا إحساسها بالذنب، وعرفت أن عليها حالما تعود إلى موطنها، مواجهته وإنهاء خطوبتهما فهي لم تعد قادرة على التفكير في الزواج الذي سيربطهما خاصة وأن مشاعرها متعلقة برجل آخر.. ولكنها ليست غبية لتعتقد أن لها مستقبلاً مع غايڤنغ. فغيابه وصمته، يؤكدان أفكارها التي تقول إنه يريد منها أن تعرف أن ما كان بينهما أو ما كاد يكون بينهما ما هو إلا نتيجة الظروف، وأن الأمر انتهى الآن إلى الأبد.

بعد ثلاثة أيام على شفائها من الحمى سئمت من الرقاد في سرير المستشفى فوعدتها بيني بقضاء العصر معها.. وفي نهاية الأسبوع سيسافرون معاً إلى بلادهم.

قال الطبيب حين جاء يعودها:

ـ أنت شابة محظوظة.. لقد خدعت الموت.. لا مرة واحدة، بل مرتين.

عرفت سلطات المستشفى ظروف تسممها، ولكن سلطات الجزيرة تعمدت إبقاء عملية الخطف في الكتمان.. وهذا ما كان سيكون ضد مصلحة غايڤنغ ومينا لولا تمكنهما من الفرار كما أخبرتها بيني.. إذ قالت لها للمرة الأولى:

- صدقاً لم أكن لأظن أنني سأراك حية مرة أخرى.. أنا آسفة.. يجب ألا أذكرك بهذا لأنها بدون ريب تجربة مرة.

- أجل..

لكنها لم تستطع أن تقول بأن ذكرياتها عن سانت ستيفان ستكون من بين أثمن ذكريات حياتها.

- لا بأس عليك.. سرعان ما تعودين إلى موطنك وخطيبك، من حسن الحظ أنك مُخطوبة ولولا ذلك لوقعت في حب غايڤنغ.. لو كنت مكانك لوقعت في حبه بوجود ستافرو أو بدون وجوده!

تمكنت مينا من إطلاق ضحكة جوفاء، لتبعد اهتمام بيني عن وجهها الشاحب، ثم سألتها متى سيأتي ستافرو ليصطحبها من المستشفى.. كانت تعلم أن عليها إظهار شوقها إلى العودة ولكنها لم تكن كذلك إذ لم تشعر إلا بالفتور واللامبالاة.. إنه من تأثير السمّ كما قال لها الطبيب.. ولكن مينا تعرف ما هو مختلف عن هذا.. إنها وسيلة يقوم بها جسمها لتحصينها ضد فقدان غايڤ.. ابتسمت بدون ابتهاج فلا شيء يجعلها قادرة على نسيانه. إنه مطبوع في فكرها ومدموغ في كيانها. وسيبقى جزءاً منها حتى آخر حياتها..

* * *

٦ ـ الغزالة الخائفة

أمطرت السماء أثناء دوران الطائرة الضخمة حول مطار هيثرو.. وهبطت من بين غيمة رقيقة رمادية.

كان المدخل رقم ثلاثة مشغولاً.. فثمة حديث عن إضراب يقوم به عمال المطار، ومن كان قادراً كان يحث الخطى للخروج قبل بدء الإضراب..

ودعت مينا في المطعم الزوجين هولاند اللذين أصرّا على دعوتها إلى فنجان قهوة للمرة الأخيرة.

قالت لها بيني تحثها: «عديني بالمراسلة لأعرف كيف تسير الأمور معك.. وإن احتجت إلى الراحة في أي وقت فاعلمي أننا نرحب بك.. وبخطيبك. هل أخبرته عن موعد وصولك؟ ظننته سيخف إلى استقبالك خاصة بعد ما عرف بخبر مرضك».

بان في صوتها أثر للسخط فسارعت مينا تدافع عن كارسون شارحة أنها لم ترد إزعاجه، لذا أرسلت له برقية تقول فيها إنها ستمدد إقامتها أسبوعاً آخر على أن تتصل به لدى عودتها إلى ربوع الوطن.

بدت لندن، رمادية قاتمة كئيبة بعد الألوان الاستوائية المشرقة في الكاريبي.. ولكن ربما كان مزاجها الكئيب هو الذي صبغ

شوارع المدينة بالاكتئاب. وجدت نفسها منذ أن شفيت من الحمى تعيش في عالم غريب ليس فيه ما هو مهم وكان التعب يلازمها وكأنه صديق رمادي قاتم حيث الإحساس الوحيد الذي تعرفه، هو الألم الحاد كلما فكرت في غايفنغ.

تقع شقتها في مبنى سكني صغير حديث.. وقد ساعدها رئيسها للحصول على رهن مناسب، كان دفع الأقساط يرهق كاهلها أحياناً ولكنها كانت تشعر بالرضى لأن الشقة ملكها.

المبنى السكني محاط بحدائق مشذبة المروج، مزروعة كيفما اتفق بالشجيرات المزهرة الصغيرة والأشجار الباسقة. أشجار الكستناء العتيقة التي كان للبنّاء بُعد النظر في تركها كحد فاصل بين المبنى الذي تعيش فيه مينا وبين المبنى الملاصق له كانت تضفي ألواناً رائعة على المكان.

انسحقت حبات الحصى تحت إطارات التاكسي وهو يتوقف أمام الباب الرئيسي..

نقدت السائق أجرته غير أنها دهشت لأنه ترجل في مكانه ليحمل لها حقائبها إلى البهو حيث قال لها بصراحة وهي تعطيه مكافأته:

- تبدين بحاجة إلى عطلة ولا تبدين أبداً عائدة من رحلة.

نظرت في مرآة المصعد الصغيرة. هذا صحيح، تبدو شاحبة فعلاً فقد تلاشى اسمرارها وهي في المستشفى وفقدت وزناً هي لست بغنى عنه. بدا على وجهها نظرة ضعف هشة وبدت عيناها مجروحتين بنظرة ألم.

تركتها رحلة الثماني ساعات متعبة مرهقة.. لذا توجهت رأساً إلى السرير الذي ما إن اندست بين أغطيته حتى غرقت في نوم

عميق.

كان الظلام قد حلّ عندما استيقظت مشتتة الفكر تشتتاً أمضت معه عدة دقائق لتتذكر مكان وجودها.. كان النور الضئيل المنبعث من غرفة الجلوس الدليل الوحيد على أنها في شقتها.. أشعلت المصباح قرب السرير، ونظرت إلى ساعتها.. الثالثة صباحاً! وهو ليس الوقت المناسب للاتصال بكارسون وإخطاره بعودتها كما أنها مضطرة للذهاب إلى المكتب في الغد.. لقد اتصلت السلطات في سانت ستيفان برب عملها لشرح سبب تأخرها في العودة. نهضت من السرير، وسارت في الشقة، ثم بدأت تفرغ ملابسها من الحقائب، ترتبها في كومات مرتبة استعداداً للغسيل.

كان معارفها يبدون الدهشة حين يرون شقتها وحتى كارسون الذي لا يحس كثيراً بما حوله، أبدى عدم موافقته.

لم تكن مينا نفسها تعرف ما الذي دفعها إلى اختيار ألوان ناعمة واضحة طبيعية..

غرفة نومها مزينة بألوان خوخية فاتحة وخضراء. ورق الجدران والأقمشة عائد طرازها إلى العصور الوسطى، أما الكرسي الهزاز الصغير فمشترى من دكان لبيع الأشياء العتيقة.

كان منزل أهل كارسون مفروشاً بأنتيكات فيكتورية الطراز، فظة المنظر رسمية مثلهما.. وتعتقد مينا أنهما يتوقعان حين يتزوجان، أن يفرشا منزلهما على الطراز الذي تفضله أمه وأبوه.

أعدت مينا لنفسها فنجان قهوة في المطبخ الذي تطغى عليه النباتات الرائعة.

حملت قهوتها إلى غرفة الجلوس، المزينة بألوانها المفضلة، مع أنها هنا طلت الجدران باللون الأخضر الفاتح عوضاً عن اللون

الخوخي... أما الأريكة التي اشترتها مينا من محل لبيع الأشياء العتيقة فوضعت عليها قماشاً دافئاً تتراوح ألوانه بين المشمشي والأخضر.

كانت خزانة ملابسها متجهمة صارمة عكس حال المنزل.. وكأنما كل الانقباض والكبت الذي تعلمته من عمتها انمحى تماماً مع أثاث بيتها، ليعود صارخاً في مظهرها الخاص.

لأول مرة أحست مينا برغبة في تجربة ما هو أكثر من كريم الأساس كظلال العيون وأحمر الشفاه.. عندما جلست في قطار الأنفاق في طريقها إلى عملها، وجدت نفسها تتأمل من حولها من الفتيات تحاول المقارنة بين مظهرهن ومظهرها.. لم تكن العمة مارولا توافق على الماكياج وتقول إنه يشوه الوجه.. ومع أن مينا الناضجة اعترفت بضيق أفق تفكير عمتها، إلا أنها كانت تشعر بأن على الماكياج أن يكون خفيفاً وهادئاً لا تجميلياً مع ذلك، وجدت نفسها اليوم تتساءل عما إذا كانت تستطيع وضع الألوان البراقة كظلال العيون الليلكية وكأحمر الشفاه الوردي ذاك.

انصب اهتمامها وهي في الطريق على واجهات المحلات خاصة على واجهة تعرض مجموعة رائعة من الملابس الداخلية الرائعة.. في الماضي كانت الملابس الداخلية المحتشمة حتى القبيحة منها تبدو ملائمة لها.. لكنها الآن تجد نفسهاتحدق إلى الملابس الحريرية التي تحيط بها الشرائط المطرزة.. ولم تدر لماذا فكرت في هذه اللحظة في غايفنغ فنهرت نفسها. ماذا دهاها؟ إنها تتصرف كمراهقة صغيرة.

ـ حسناً جداً.. أنت تحبين المخاطر.

كان المتحدث رئيس عمل مينا ميردوك بريستونز وهو رئيسها

منذ ثلاث سنوات. عملا معاً كفريق واحد بشكل رائع. مينا هادئة مسيطرة، وميردوك كثير التوتر أحياناً، ولكنه يملك الحيوية وحاسة التمييز اللتين تجعلانه ناجحاً مميزاً في عمله الذي هو اكتشاف الكتاب الموهوبين وتشجيعهم. قد تكون مؤسسة النشر هذه قديمة الطراز ولكن عملها ليس بالضرورة قديم الطراز، فقد حقق ميردوك نجاحاً ملحوظاً في السنوات الأخيرة.

ولعل آخر ما حققه كانت قصة سياسية «الملتزم» من هونغ كونغ وقد بيعت النسخة بكثرة منذ الأسابيع الأولى على نشرها وكان على مينا أن تسانده في أثناء الركود المؤقت الذي يحدث ما بين «اكتشافاته».

ما إن خلعت معطفها حتى لاحظت أن ميردوك في مزاج «علوي» آخر.. وها هي جميع الدلائل موجودة: انشغال البال والقلق والمسير في المكتب الصغير جيئة وذهاباً وشرب القهوة المتواصل. والصمت المطبق الطويل.. حسدته مينا على قدرته على إغراق نفسه بالكامل فيما يفعل، أولاً لأن هذا يبعد اهتمامه عنها ولكنه مع ذلك علق بأنها لا تبدو سمراء.

لم يتوقف ميردوك للغداء وهذه عادته عندما يكون مشغولاً بمشروع ما.

قال لها بحماس: «أظنني اصطدته.. سيكون كتاباً عظيماً حقاً.. ولكنني لا أستطيع إخبارك المزيد عنه»

سألته مينا:

ـ أتعارض أن أتصل بكارسون من المكتب؟ فهو لا يعرف حتى الآن بعودتي.

نظر إليها بدهشة: «لا يعرف؟ ما خطب هذا الرجل؟ لماذا لم

ينتظرك في المطار ليحملك إلى..»

قاطعته متجهمة: «إلى منزل والديه؟ هذا ليس أسلوب كارسون».

- أعرف.. فالرجل كالقميص المنشّى.. عيّنة تحتاج إلى متحف.. المسألة أن..

نظر إليها متأملاً ثم أردف:

- إنها المرة الأولى التي تنتقدين فيها كارسون. هل أعدت النظر؟ وهل في الأفق حب عطلة؟

ردت بحزم: «ركز على اكتشافك الجديد ميردوك!»

- آهه! إنها لا تنكر.. أتساءل.. ماذا يعني هذا؟

- إنه يعني أنني كسائر النساء أحب ترك الرجال في حيرة.

تلك الليلة قال ميردوك لزوجته، بأنها المرة الأولى التي يرى فيها أن مساعدته الهادئة المسيطرة على نفسها، تتصرف كامرأة، وأكمل:

- إنها واقعة في الحب.. سجّلي كلامي!

قالت ميراي بريستونز التي قابلت مينا في أكثر من مناسبة، وأحست بالأسى عليها:

- بالطبع واقعة في الحب.. أليست مخطوبة؟

تعرف مينا أن كارسون يكره أن تتصل به في مكتبه. لأنه حريص على الشكليات، فقد قال لها مرة إن هذا سيكون مثالاً سيئاً لبقية الموظفين، ووافقت على ذلك ولكنها تحس بالانزعاج كلما تذكرت.

كانت مينا كفراشة خرجت للتو من شرنقتها فهي غير قادرة على التوفيق ما بين المخلوقة المتزمتة غير المتجاوبة التي كانتها

يوماً وما بين المخلوقة الجديدة التي تحاول الانطلاق إلى الحياة بفضل حبها لغايڤنغ.

قالت سكرتيرة كارسون، وهي ابنة صديق لأبويه، وبصوت متكبر إن كارسون ما زال في نيويورك. وأضافت:

- سيتصل بعد الظهر.. هل أبلغه رسالة؟

طلبت منها أن يتصل بها لدى عودته ثم عادت إلى عملها. في الرابعة، أعلن ميردوك أنه اكتفى من العمل فقد أمضى الساعة الأخيرة وهو يرسم الدوائر على الورق ناظراً إلى الهاتف بتركيز شديد جعل مينا تستنتج أن الأمور لا تجري كما يخطط لها.

قالت له: «هل أبقى هنا قليلاً على سبيل الاحتياط؟ أتنتظر مكالمة؟»

- كنت أنتظر.. لكن حدسي يقول إنني لن أتلقاها. ليس اليوم على أي حال، لا.. اذهبي إلى البيت مينا فأنا أراك متعبة.

وهي متعبة فعلاً، كان ذلك ما اعترفت به بعد عشر دقائق وهي تتأمل صورتها في مرآة غرفة الملابس.

اليوم، استرعى انتباهها لسبب مجهول صالون التجميل «اليزابيت آردن» الذي كانت تمر به يومياً في السنوات الماضية الأخيرة بدون أن تلقي عليه نظرة.. تذكرت وجوه الفتيات المتبرجة الجميلة التي شاهدتها هذا الصباح، وقارنتها بوجهها.

دخلته لا إرادياً فوجدت فيه موظفة مشرقة الوجه تبتسم لها. راحت الموظفة تقول لها إنها محظوظة لأن أحد خبراء التجميل موجود وهو قادر على إعطائها دروساً.

لم تتوقع مينا أن يكون الخبير رجلاً جذاباً.

بعدما قبلت دعوته إلى الجلوس راح يتأمل وجهها بصمت

مطبق، قبل أن يقول:

- بنية عظام وجهك رائعة، وبشرتك بشرة جيدة ولكنك أهملتها.. وهذه الظلال الزرقاء حول العينين قاسية جداً.

أزال بسرعة الماكياج الذي على وجهها، تاركاً بشرتها ناعمة طريّة. ثم استدار إلى مجموعة واسعة من أدوات الزينة:

- نستخدم أولاً كريم الأساس على ألا يكون كذاك الذي تستخدمينه، لأنه سميك وثقيل. على بشرتك أن تتنفس، وبهذا يظهر جمالها الحقيقي.

وضع لها كريم الأساس بأسفنجة مبتلة فأذهلها أن ترى أن السائل غيّر بشرتها وأضفى عليها لمعاناً لؤلؤياً ناعماً.

في الساعة التالية اكتشفت مذهولة كيف يمكن لظلال العيون الليلكية التي استخدمها فرانسوا أن تظهر عينيها كبيرتين بنفسجيتي اللون..

قال لها فرانسوا ناصحاً، محذراً:

- الرقة هي المفتاح.. عيناك رائعتان كعيني ظبية خائفة.. قبل أن تخرجي سأصبغ لك أهدابها. لا أنكر أنها سوداء ولكن زيادة حدة اللون ستساعدك على تضخيم حجمها.

لمع أحمر الخدود على وجنتيها ببروز أكثر مما تذكره مينا، وانسابت لمسة رقيقة من أحمر الشفاه على شفتيها فأظهر جمالها بشكل ساحر.

بمساعدة فرانسوا استطاعت شراء أنواع جديدة من الماكياج من المحل.. وأخذت كلماته الأخيرة، ترن في أذنيها وهي تسرع مرة أخرى إلى الشوارع المزدحمة. قال لها:

- اتركي شعرك منسدلاً.. إنه أجمل من أن تخفيه في عقدة

بشعة.. وإن كنت مضطرة لدفعه، فاختاري تسريحة أفضل.

وعدت نفسها أن تجرب نصائح فرنسوا اليوم بالذات.

أثناء العودة فكرت في أن عليها إنهاء الخطوبة. في الغابة، استخدمت الخطوبة وسيلة دفاع عن النفس، لمنع غايڤنغ من التفكير في أنها تحاول الإيقاع به لعلاقة دائمة. ولكنها الآن ليست في الغابة، وعلى كارسون أن يعرف الحقيقة..

كانت قد دخلت إلى الفراش لتوها، حين رن جرس الهاتف.. للوهلة الأولى فكرت أن المتكلم غايڤنغ، ولكنها سرعان ما أدركت، أنه حتى ولو حاول الاتصال بها، لا يعرف أين تعيش.

حين التقطت السماعة كان صوت بيني يأتيها سائلاً عن صحتها. وردت بخفة:

- أنا بخير، بخير إلى درجة أنني أنفقت ثروة على ماكياج جديد.

- هذا جيد لك!

بدت الموافقة الحقيقية على صوت بيني.. وتحدثتا لبضع دقائق، ثم أنهتا المكالمة.

أن تجد من يهتم بها لتجربة جديدة لمينا التي كانت تضع دائماً مسافة قصيرة بينها وبين الناس ولكن بعدما دخل غايڤنغ إلى حياتها تغير حالها كله.

ما كادت تضع السماعة في مكانها، حتى رن الهاتف مجدداً وفي هذه المرة كان كارسون هو المتكلم وقد سألها غاضباً:

- من كان على الهاتف حين اتصلت منذ خمس دقائق؟

لكنه هدأ حين أخبرته فأردف:

ـ قالت كوليت إنك تريدين محادثتي؟

قالت لنفسها منتقدة إن كارسون لم يظهر أقل قلق عليها أو اهتمام بها. في الماضي لم تجد خطأ في كارسون ولا يمكن لومه على إظهار شخصيته التي جذبتها إليه أصلاً.. ولو سألته عن هذا، فما من شك أنه سيرد بسخط متعجرف أنها ما كانت لتعود لولا استردادها عافيتها.

ـ أجل.. طلبت محادثتك. متى تعود؟

ـ في نهاية الأسبوع.. رتبت الأمور لنذهب إلى منزل أهلي وهناك ستتمكنين من إخبارهما عن عطلتك رغم عدم موافقتهما عليها.. فأمي لا تظن أن من اللائق بفتاة تمضية العطلة بمفردها.

سألت يائسة: «كارسون.. أيجب أن نذهب؟ ثمة ما أريد مناقشته معك».

ـ سنناقشه في نهاية الأسبوع.. إذ يمنحنا والداي دائماً الوقت الكثير لنمضيه معاً.

وهذا لا يتجاوز النصف ساعة ليلاً.

ـ كارسون.. هذا ليس شيئاً..

قاطعها: «اسمعي مينا.. لا أستطيع الكلام الآن.. سأصحبك في الوقت المعتاد يوم الجمعة.. وسيكون لدينا عندئذ الوقت الكافي لمناقشة ما تريدين.. يجب أن أذهب الآن».

لماذا لم تدرك من قبل مدى ضيق أفقه وغروره.

كانت جاهزة قبل الثامنة والنصف نظراً لمعرفتها بدقة مواعيد كارسون. حضرت ثياباً لتمضية عطلة الأسبوع.. فاختارت فستاناً حريرياً للعشاء يوم السبت لأن عائلة كيكورد ترتدي ملابس السهرة دائماً للعشاء، والفستان جديد ليلكي فيه ظلال فضية ستفعل

الأعاجيب بعينيها.

بدأت عملاً بنصيحة فرانسوا تمشط شعرها لينسدل على كتفيها وقد زارت مزيناً للشعر نصحتها به زميلاتها في العمل فشذب أطراف شعرها وأزال ما هو زائد فيه تاركاً إياه ناعماً متجعداً على شكل جرس حول وجهها..

كانت شمس الكاريبي قد فتّحت لون شعرها قليلاً. وزادت ظلال العيون الليلكية عينيها عمقاً رهيباً وأبرز أحمر الشفاه التوتي الفاتح دفء استدارة فمها.

ارتدت للسفر ما هو مختلف عما ترتديه عادة. سروالاً قطنياً رائع التفصيل ليلكياً أيضاً، وبلوزة ذات شرائط عند الكتفين، وسترة مماثلة. وصل كارسون في تمام الثامنة والنصف فبدا ساخطاً عندما نظر إليها. قال: «لا يمكنك السفر بثياب كهذه!»

ردت ببرود: «ولمَ لا؟ إنها مريحة وهي تعجبني».

ـ تبدين كالمراهقة.

ولكنها رفضت أن يؤثر فيها كلامه، فالأكبر منها سناً يرتدين ثياباً تفوق هذه بهرجة. على أي حال، أليس من حقها أن تنقذ ما تستطيع من تلك السنوات الضائعة التي عاشتها مع العمة مارولا التي سرقت منها لذة الشباب؟

حمل كارسون حقيبتها بصمت إلى سيارته. فتبعته وهي تعرف أن لا مجال للحديث معه في السيارة لأنه يكره التحدث أثناء القيادة وفيما كانت السيارة القوية تلتهم الأميال، وجدت أن توترها يتضاعف. ليتها أنهت خطوبتهما في لندن! ليتها غير مضطرة لإخباره بقرارها عند أهله!. فكرت في الانتظار حتى عودتهما لكن الصدق المتأصل في نفسها، يدفعها إلى أن تبوح له بقرارها حالما

تستطيع فلا يمكنها البقاء تحت سقف والديه بادعاء زائف.

يقع منزل آل كيكورد في «كوستولد» «بلاد الأمراء الشبان» كما تحب السيدة كيكورد أن تصفه بتعجرف.. وجدا أهله بانتظارهما حين وصلا.. تناولا المرطبات معهما في غرفة الاستقبال وهناك لم يفت نظر مينا الطريقة التي كانت أمه ترمقها بها، مما جعلها تشعر بالتسلية لأن السيدة تفكر أن مينا غير مناسبة زوجة لابنها.. لا شك أنها تفضل كوليت الأنيقة المتحدرة من نسب رفيع.

قال الكولونيل باستكبار أثار أعصاب مينا:

ـ حسناً.. ستترككما أيها الصغيران معاً.

إنَّ مينا تفضل الأب على الأم.. ولكن ما كان يصيبها بالإحباط هو إحساسها بأن كارسون سيكون صورة طبق الأصل عنه بعد ثلاثين عاماً.

أردف الأب قائلاً: «لا شك أنك تريدين إخبار كارسون عن عطلتك».

قالت السيدة كيكورد: «كانت تجربة رهيبة بالنسبة لك بدون شك! على المرء أن يكون حذراً في تلك الأماكن. أنا شخصياً لا أحب الطقس الحار.. ولم أكن مؤمنة أن من الحكمة الذهاب بمفردك والسير في الغابة..»

قاطعها الكولونيل بسرعة: «تعالي عزيزتي.. سنراكما في الصباح».

بدت غرفة الاستقبال خانقة قابضة للنفس. وشمّت مينا رائحة عطر السوسن البري الذي تستخدمه والدة كارسون. أرادت أن تقترح عليه التنزه في الحديقة فربما هناك تجد من السهل التحدث إليه.

قال كارسون بلهجة حزينة: «أتعلمين؟ أظن أن أمي على حق، فلم أكن موافقاً على فكرة سفرك ولكنك أصرّيت».

قالت متوترة: «وكأنك تقول بكلمات أخرى ان لسعة العنكبوت كانت عقاباً ملائماً».

لماذا لم تدرك من قبل مدى دلاله وفساده.

ـ حسناً.. يجب أن تعترفي أنك ما كنت ستتعرضين إلى ذلك الأذى لو بقيت في الوطن.

فجأة بدت لها المهمة سهلة. وشكرته في نفسها على تسهيله الأمر عليها من غير قصد..

قالت: «كأي خطيبة تعرف واجباتها؟.. اسمع كارسون.. هناك ما علي قوله لك»

خلعت الخاتم السوليتير من يدها.

ـ أظن أن علينا فسخ خطوبتنا.. فلا أظنها خطوة مناسبة لأي منا. أنت بحاجة إلى زوجة تنفعك اجتماعياً ككوليت، أما أنا فلا أظنني أناسبك حقاً.

رد كارسون بدون لباقة:

ـ ربما، ولكنك ستتعلمين. ستعطيك أمي دروساً في هذا المضمار.

ـ كارسون.. لا أظنك تفهم.. ليست المسألة قدرتي على أن أصبح كما تريد بل الأمر ببساطة أنني لا أريد أن أكون زوجتك.

بدأ يحمرّ بشدة: «وهل قابلت شخصاً آخر.. هل تورطت في علاقة بذيئة رخيصة أثناء السفر؟»

كان قريباً من الحقيقة، بحيث لم تؤلمها اتهاماته:

ـ لم تكن بذيئة أو رخيصة خاصة من جهتي..

ـ ستندمين، كنا سنعيش حياة جيدة.

لاحظت مينا أنه لا يحاول إقناعها بالتراجع.. وأضاف:

ـ ثمة أمر واحد. هل لك أن تتركي الأمور على حالها في الوقت الراهن؟ لقد دعا والداي جاراً للعشاء غداً.. إنه ثقيل الظل وسيكدرهما أن..

ـ وترتيبات مائدة أمك؟

ـ تدينين لي بهذا على الأقل. سيعرف والداي أنك من فسخ الخطبة إن أخبرتهما الآن.. فلو كان الاتفاق مشتركاً، لما صحبتك إلى منزلهما هنا.. لذلك أفضل الانتظار حتى عودتنا إلى لندن.

وجدت مينا أن لا مفر لها من القبول فأعادت بتردد كبير الخاتم إلى أصبعها..

قال كارسون: «سوّي الأمر إذن.. عظيم.. لا أريد غايثنغ كلينتيس أن يضحك عليّ من وراء ظهري.. يكفيني ما نلته منه في أيام الدراسة».

أحست مينا وكأن أنفاسها انتزعت من رئتيها. من حسن الحظ أن كارسون لم يكن ينظر إليها، وإلا لأدرك الحقيقة.

ـ غايثنغ كلينتيس؟

أهذا هو صوتها المرتجف هكذا؟

ـ أجل.. إنه يعيش على مسافة أميال من منزلنا.. ورث مكاناً كبيراً عن عمه.. أمضى وقتاً في الجيش ولا أعرف ماذا يفعل الآن. لم يدعه أهلي إلا أملاً في أن يسمح لهما بالصيد في أرضه..

نظر إلى ساعته، ثم أردف:

ـ سآوي إلى فراشي. تذكري مينا أننا ما زلنا بالنسبة للجميع

خطيبين.

يا لسخرية القدر الظالمة!

غايثنغ كلينتيس جار آل كيكورد. وعليها مواجهة غايثنغ على مائدة السيدة كيكورد الأدواردية الطراز.. غايثنغ كلينتيس الذي وعدها ألا يقول شيئاً لخطيبها عما حدث.. غايثنغ كلينتيس، الذي لا يجب ألا يعرف أنها فسخت خطوبتها لئلا يظنها تتوقع منه شيئاً.

* * *

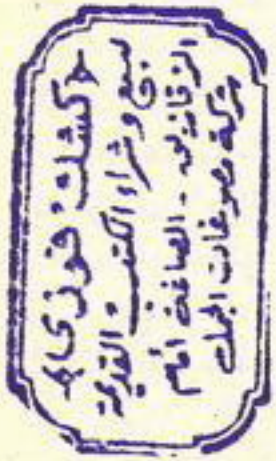

٧ ـ دموع مرّة

غايڤنغ هنا!

لا تكاد تصدق ذلك! عرفت أنه وصل، فقد سمعت هدير سيارته فوق الحصى في الخارج ثم رنين جرس الباب الأمامي.

أمضت اليوم كله في توتر ولكن من حسن حظها أن والديّ كارسون لم يلاحظا شيئاً.

خرجت وكارسون في نزهة بعد الغداء.. فآل كيكورد يؤمنون بفوائد الهواء الطلق، فقد قالت أم كارسون إن على مينا الخروج «لتعيد بعض النضارة إلى وجهها». ثم أضافت بخبث أن للماكياج الجديد هذا التأثير الرهيب في وجهها.

عضت مينا بشدة على لسانها لتمنع نفسها من الرد، وقالت لنفسها إنها العطلة الأخيرة التي تقضيها في هذا المكان لذا عليها الصبر حتى تمضي. كانت النزهة آخر ما ترغب فيه بعد الغداء.. في الواقع، أحست بالغثيان. فالعائلة مغرمة بالطعام الدسم، ومينا ما زالت ضعيفة بسبب لسعة العنكبوت. لقد قال لها طبيب الجزيرة إن السم الذي ضخه العنكبوت يشبه في تأثيره الأدوية الحديثة التي تسبب الشلل، ممزوجة مع تأثير مخدّر مشابه لمهدىء الأعصاب..

والآن بعدما أقنعت نفسها بأن الأمر انتهى وانقضى من حياتها تراه ثانية. جعلتها هذه الفكرة ترتجف وهي تضع ماكياجها.

يا إلهي!.. لن تستطيع مواجهته. لا تستطيع! ولكنها مضطرة. فلو اختفت الآن وذكر غايڤنغ صدفة أنه كان في سانت ستيفان، في الوقت الذي كانت فيه هناك فسيجمع كارسون حساباته ويستنتج ما لا تريد أن يعرفه. كما سيعرف عندئذ غايڤنغ أنها وقعت في حبه وهذا أعظم ذل قد تتعرض إليه، فهو يحتقرها حتى قبل أن يعرف بوقوعها في حبه.

أجبرت نفسها على التركيز على مهمتها في وضع الماكياج كما علمها فرانسوا.. ولكن عليها ألا تضع الماكياج بل طلاء الحرب لتبدو أشجع مما هي عليه الآن.

إن أفراد عائلة كيكورد من المتزمتين بالنسبة للمواعيد لذا كانت جاهزة في تمام الثامنة مرتدية فستانها الليلكي والفضي مزينة وجهها بحذر ودقة صاقلة أظافرها بلون وردي ناعم أما شعرها فتركته ينسدل على كتفيها كجرس طليق.

توقفت أمام الباب ثم عادت أدراجها لترش باندفاع شجاع أخير العطر العصري الغالي الثمن الذي اشترته، فوق معصميها ومنتصف عنقها، وخلف ركبتيها، ثم التقطت وشاحاً فضياً مشغولاً كالشبكة، ووضعته حول كتفيها، لأنها تعلم أن آل كيكورد حريصون على فواتير التدفئة، وغالباً ما تكون غرفة الاستقبال الضخمة باردة.

كان الآخرون قد سبقوها إلى غرفة الاستقبال. وكانت ميرا الفتاة القروية التي تأتي لمساعدة السيدة نيمبز في الطبخ وتقديم الطعام تقدّم كوب عصير كرز لغايڤنغ..

لم يكن أحد قد لاحظ وصول مينا فشعرت باندفاع جبان للهرب وإلى الجحيم بالنتائج! ثم رفع كارسون رأسه، وتقدم إليها. جعلت الملابس الرسمية جسده متصلباً.

ـ آه.. أهذه أنت حبيبتي؟.. همم، رائحتك جميلة.. ما اسم العطر؟

ـ لور بلو..

قفزت عيناها نحو غايڤنغ ففضحتا مشاعرها للحظة وجيزة، ولكنها تماسكت واستدارت لتتناول الكوب من ميرا.. أعجب جزء منها برباطة جأشها أما الجزء الآخر فسخر منها يقنعها بأن هذا لن يدوم.

قالت والدة كارسون:

ـ ما هذا الثوب الجميل عزيزتي إنه لون غير عادي كذلك. لا أظنني رأيتك مرتدية إياه من قبل. لم تكن الفتيات في شبابي يعملن كفتيات اليوم، ولكنني أذكر أنني كنت أدخر المال لشراء أشياء لخزانة ملابسي.. لكن الأمور تغيرت بالطبع الآن.

ترى بما كانت ستشعر لو كانت تحب كارسون فعلاً؟

قاطعها الكولونيل: «غايڤنغ.. دعني أقدم لك كنتنا القادمة.. مينا عزيزتي، هذا غايڤنغ كلينتيس، أقرب جيراننا».

ـ سيد كلينتيس.

تعجبت مرة أخرى من هدوء صوتها ومن ثبات أصابعها عندما صافحت غايڤنغ..

ـ مينا.. أخشى أنني مضطر لمناداتك بهذا الاسم إذ لم يقل الكولونيل اسم العائلة.

كان في صوته سخرية ما وشيء آخر أقل لطفاً. إن نوع من

القسوة برزت واضحة في كلماته ولكن لم يدرك أحد سواها الجو المشحون الذي ساد فجأة، والذي سيلوّن الأمسية كلها وكأنه خيط فضي في صوف رمادي كئيب.

اعترفت مينا أن وجوده كشحنة كهربائية في هذا المكان.

تحدث والدا كارسون عن جور ضريبة الدخل، ومشاكل ترك أملاك المرء لعائلته..

ـ طبعاً، سيستولي كارسون على هذا المكان يوماً.. فلقد امتلك آل كيكورد هذه الأرض منذ أيام الملكة ڤيكتوريا.

سأل غايڤنغ بدون اكتراث وكان سؤاله موجهاً إلى الكولونيل أما عيناه فحطتا على مينا:

ـ وكيف تشعر مينا بصدد العيش في الريف؟

تدخلت السيدة كيكورد قبل أن يرد غيرها:

ـ آه! تعرف أن كارسون لن يعيش طويلاً في مكان آخر.. ومن واجبات المرأة طبعاً العيش حيث يعيش زوجها.. لا العكس.

نظر غايڤنغ إلى وجه مينا المتورد قليلاً:

ـ أظنك لا تعملين مينا؟ كما أظن أن لا طموح خاص لديك؟

أدركت أنه يتعمد إثارتها، بل هو يحاول إيلامها.

قالت والدة كارسون بثبات:

ـ ولماذا يكون لديها طموح. من المؤسف أنها ترفض الصيد والقنص..

بهذه الطريقة حوّلت دفة الحديث إلى الموضوع الذي كان سبب هذه الدعوة، وأخذ أفراد العائلة الثلاثة يناقشون فوائد الصيد بحماس، ويسألون بين حين وآخر رأي غايڤنغ بالموضوع ولكنه

كان يرد عليهم بحذر كبير فلم يفضح بإجاباته تلك عما في نفسه أو عما ينوي عمله بالنسبة للصيد على أرضه.

أعلن الكولونيل بعد انتهاء الطعام:

ـ حسناً.. أقترح أن نلوذ نحن الرجال إلى مكتبة للتدخين.. وهذا ما سيمنح النساء فرصة لمناقشة خطط الزفاف.. إيه.. مينا؟

لا حاجة للقول إنهما لم يتباحثا شيئاً من هذا القبيل بل الواقع أن السيدة كيكورد تجنبت الموضوع بخبث وهذا ما أرضى نفس مينا. لا تعلم السيدة كيكورد أنها ستحقق أكبر أمنياتها قريباً.

عندما انضم الرجال إليهم مجدداً، اعتذرت مينا مدعية الصداع ولكنها عرفت من تعابير وجه الكولونيل الحمراء أن لا شيء سار على ما يرام كما كان يتوقع، وهذا ما تأكد لها حين سمعت غايڤنغ يقول:

ـ أجل.. أنا واثق أنك على حق كولونيل.. وأنا أبعد من أن أفسد متعة أحد.. إنما لدي خطط لأرضي لا تشمل الصيد.

هيأت مينا نفسها للنوم فملأت المغطس بالمياه ثم نزعت ثيابها رامية الفستان الحريري إلى الأرض بلا اكتراث. عندما عادت إلى الغرفة منتعشة التقطت رائحة عطرها الغريبة، وأجفلتها المتعة الغريبة والصورة التي تنتج عنه، الصورة التي أصبحت عليها هي الآن.

إن الشيء الوحيد الذي اكتسبته من معرفتها بغايڤنغ هو الإحساس بالسعادة. كانت قد شرعت بتنظيف الماكياج عن وجهها عندما سمعت طرقاً خفيفاً على بابها، فالتقطت الروب عن السرير ووضعته على كتفيها وتقدمت تفتح الباب. إن آخر ما قد ترغب فيه الآن هو جدال مع كارسون. فالصداع الذي كان ذريعة، أصبح

واقعاً الآن.

عندما فتحت الباب قالت ضجرة:

ـ آه كارسون.. أرجوك.. ليس الليلة..

ـ حسن جداً.. لقد تغيرت أمور كثيرة منذ سانت ستيفان!

ودخل غايڤنغ كلينتيس من الباب.

إن كانت بذلة السهرة قد ناسبت كارسون، فإنها قلبت غايڤ وجعلته فاتناً كامل الرجولة. ارتدت مينا إلى الوراء مذعورة لأنها عرفت الخطر الذي يمثله أمام دفاعاتها الهشة.

أردف غايڤ: «أنت بكل تأكيد مخلوقة عجيبة.. ماذا حدث؟ أم تراني أستطيع التخمين؟ أتحاولين إيجاد طريقة لجر كارسون إليك بعدما فشلت في جري إلى أحضانك؟ لكنني أحذرك أن حماتك المبجلة غير مخدوعة بك فهي لا تريد أن تراك متزوجة بوحيدها».

ردت عليه بحدة، والغضب يحل مكان الصدمة:

ـ المهم ما نريده نحن، أنا وكارسون.

ـ وكارسون يريدك؟ لا أستغرب ذلك! فبارتداءك مثل هذه الملابس تصبحين حلم كل مراهق تجسد إلى الحياة.

دوت الصفعة على فكه في أرجاء الغرفة ثم تركت مينا بيضاء سقيمة، تكره نفسها بسبب العنف الذي أجبرها عليه.

قال ساخراً متجاهلاً الاحمرار الذي خالط بشرته السمراء بعلامات مميزة:

ـ آه! هيا الآن.. ما كان يجول في رأسك؟ دغدغة بصرية تتبع «ليس الليلة»؟ أراهن أن المسكين لا يعرف حتى ما سيصيبه.. إنه ممن يظن أن النساء نوعان: نوع يتزوجه، ونوع يعاشره. ولا شك

أنه يظن بأنه حصل على صفقة العمر معك، فقد نال النوعين في وقت واحد. لذلك أنوى الكشف عن الإثارة قليلاً بنفسي..

صاحت به من بين أسنانها: «أخرج من هنا! أخرج..!»

كان ما حدث بعد ذلك أسوأ بكثير مما تصورته حتى في كوابيسها فعلى الرغم من الابتسامة على الشفتين كانت العينان باردتين برودا رهيباً. أحست مينا أن في أعماقه غضباً لا يلين وهذا بالضبط ما جعلها تتراجع، محاولة عدم فضح تأثيره فيها.

رد عليها بهدوء:

- سأخرج حين أكون مستعداً.. أتعلمين، منذ تركتك في المستشفى وأنا أشعر برغبة كبيرة فيك. لقد كرهت نفسي لأنني لم آخذ منك ما عرضته عليّ. لا أدري لماذا أصبحت تجرين في دمي بهذه القوة.

- لماذا جئت إلى هنا؟ ألتفسد عليّ حياتي؟

- ماذا دهاك؟ أخائفة أن يفسخ كارسون الخطوبة؟

أطلق احتقاره لها عقال غضب هائل في أعماقها.

- ولماذا تظن أن كارسون يريد فسخ الخطوبة؟ إنه يرغب فيّ كثيراً.

تشنج جسد غايف فشعرت بالانتصار عليه ولكنه عندما تمتم بعذوبة: «حسناً ربما عليّ تذوق ما يرغب فيه» شعرت بالخوف.

تحرك بسرعة لم تتح لها الفرصة للفرار ثم عانقها بقسوة ووحشية فاختنقت بدموعها. ولكن جسدها الخائن أخذ يضعف ويضعف بين ذراعيه واستجاب للدعوة الغريزية، فاشتبكت يداها خلف عنقه.. وعندما انتزعها عنه، كانا يرتجفان، غايف غضباً، ومينا شوقاً.

- أيتها الفاسقة.. هل أعجبك عناقي؟

حدقت إليه مينا وهي تشعر بالغثيان. لقد عرفت أنه تعمد مهاجمتها ليهينها وليشعرها بالخزي ولكن كيانها لا يعرف سوى أن لمسته مثيرة سواء أكان يهدف بها إلى مداعبتها أم معاقبتها.

- مينا.. هل لي أن أدخل؟

تجمدت الدماء في عروقها عند سماع صوت كارسون، فشدت الروب حولها مرتجفة، متجنبة النظر إلى الفم القاسي وإلى العينين الساخرتين اللتين كانتا تراقبانها، فجأة، تذكرت أنها تركت مياه الحمام جارية. فردت: «لحظة فقط».

وأسرعت إلى الحمام لتوقف المياه ثم اتجهت لتفتح باب غرفتها.. فليختلق غايڤنغ كلينتيس ما يشاء من أعذار عن سبب وجوده في غرفتها، فهي لم تعد تهتم. لا شك أنه يفكر في إذلالها وإيلامها، ولكن الشخص الوحيد الذي سيتألم هو كارسون. فهي تعرف أن الضربة ستكون قاضية لكبرياء كارسون ولمشاعره.

دخل كارسون يقول: «أردت مكالمتك عن ليلة أمس..»

ثم أصيب بصدمة عندما رأى غايڤنغ متكئاً إلى الجدار وصمت، ثم قطب جبينه بشدة، وهو ينقل بصره بينهما: «ماذا...»

قال غايڤنغ بسهولة:

- سألت أمك أيها غرفة مينا لأنها تركت هذا في الأسفل.

قال قوله ذاك ثم أخرج بطريقة عجيبة وشاحاً فضياً من وراء ظهره، وكانت قد تركته مينا فعلاً هناك.

- كنت أرده لها.

حين أصبحا وحدهما قال لها كارسون:

ـ لماذا لم تقل له أمي إنها سترد لك الوشاح بنفسها.. أليس غايڤنغ نوعاً غريباً من الشبان؟ والآن مينا بشأن ليلة أمس..

ردت بحزم: «ليس بيننا ما يقال. لقد انتهت خطوبتنا يا كارسون.. ولو كنت صادقاً مع نفسك لاعترفت أن هذا أفضل طريق».

صباح الأحد غرقت مينا في النوم فلم تذهب إلى الكنيسة لذا أبدت أم كارسون استياءها بوضوح عندما عادت مضيفة أن على مينا عندما تأتي للعيش في «كوتسولد» أن تكون مثالاً للقرويين في الذهاب إلى الكنيسة.

في السيارة، أعادت الخاتم لكارسون.. ولم يقترح بأن يلتقيا ثانية أو بأن تعيد التفكير. وعرفت أنه سرعان ما يجد السلوان في مكان ما..

كان الموضوع الرئيسي في رحلة العودة إلى لندن غايڤنغ.

بدا لها واضحاً أنه يكرهه لسبب لا تعرفه.. من كارسون عرفت أن غايف قد ورث مؤخراً أملاك عمه ومنزلاً كبيراً معها. ولكنه قال متذمراً:

ـ إنه ليس من طرازنا.. كانت أمه ممثلة مسرح.. وآخر ما عرفناه عنه أنه كان في الجيش.

ـ حسن جداً.. لا شك أن والدك راض عن هذا.

ـ أعتقد أنه كان يرضى لو استفاد من الجيش.. لكنه سرّح منه، ومنذ ذلك الوقت وهو يتسكع بلا عمل.

تساءلت مينا ما قد يقوله كارسون لو عرف أن غايف أبعد ما يكون عن التسكع، لأنه انضم إلى فرقة الإنقاذ الخاصة..

صباح الاثنين، حين استيقظت لتذهب إلى عملها أحست

بإعياء شديد، عزته إلى التوتر الذي أصيبت به في عطلة الأسبوع.

قال ميردوك إنها شاحبة وإن عليها الذهاب إلى طبيب ما ليعاينها.

ـ من الأفضل أن تلزمي جانب الأمان، لا يستطيع أحد الوثوق بالحمى الاستوائية..

ـ شكراً لك.. لقد لدغني عنكبوت سام، أتذكر، ولم تضربني اللاسا!

ضحك ميردوك.. كان يرتدي ثياباً تدل على أنه في سبيل اصطياد شيء كبير، وخرج من المكتب يصفّر وهذه إشارة أكيدة أن الأمور بدأت تتبلور.. اقتنعت مينا بأن ميردوك يستمتع باصطياد المواهب الجديدة.

حين عاد بعد الغداء، سألها مجدداً:

ـ أكل شيء على ما يرام؟.. مينا؟ هل تفكرين في الزواج قريباً؟ ولكن إن حدث ذلك مُنيت أنا بأكبر خسارة.

قالت له بهدوء: «لن يكون هناك زواج.. انظر، لا أحمل الخاتم»

ـ لكن لا يمكن حتى لأحمق ككارسون أن يتركك.

ـ أنت مخطىء لأنني من فسخ الخطوبة.. لم أستطع الزواج به لأنني لا أحبه.

فجأة تحول اهتمامه إليها:

ـ هكذا إذن.. همم.. لقد لاحظت نوعاً محدداً من.. الازدهار مؤخراً.. إشراق في الوجه، كان دائماً هناك ولكنه مهجور إذا صح التعبير.. إذن أنخططين للزواج «بالرجل» الآخر؟

هزت مينا رأسها مصدومة:

ـ لقد عرفته مدة وجيزة ولكنني أحببته. آه دعنا الآن من هذا الموضوع. هل سأبقى سكرتيرة لك؟

ـ لا أرى ما يحول دون ذلك، أعرفك مينا معرفة تجعلني متأكداً من أنك لست من ذاك النوع الذي يدع عواطفه تؤثر في عمله. هل قابلته في الكاريبي.. قلت إنك أحببته.. أواثقة أن الأمر ليس مجرد افتتان عابر؟ قد لا يكون كارسون أكثر الرجال إثارة.. لكن..

هزت رأسها بحزم: «الرد لا على السؤالين».

ـ حسن جداً.. أعرف متى أواجه سيدة تعرف ما تريد.. وهذا يذكرني بالحديث عمن يعرف ما يريد.. لقد تواعدت مع مؤلف جديد. وسنذهب لمقابلته يوم الجمعة القادم، سنتناول الغداء في منزله الفخم..

ابتسم متمتعاً بتعابير وجهها، ثم أردف:

ـ أنت على وشك مقابلة إنسان يحب الإنسانية.. يريد أن يحوّل منزله إلى مركز لإعادة تأهيل الأولاد المشردين وهو يعتمد على الكتاب لأنه سيساعده في تمويل مشروعه.

ـ وما هو موضوع الكتاب؟

ـ السياسة.. ولكنه سيكون في هذه المرة عن لعبة السلطان إنه داهية ماكر، وهو إلى ذلك ضليع في ميدانه كذلك.. وكله عزم على عدم بيع نفسه رخيصاً.

ـ يبدو لي مخيفاً.. أتريد أن أسجل الملاحظات أم تستخدم آلة التسجيل؟

ـ من الأفضل أن نكون مستعدين فبعد الرسالة التي أرسلها لي أرى أنه ليس هناك الكثير للمناقشة.. فلقد درس الأدب الإنكليزي

في جامعة كامبردج وهو يجيد صياغة أفكاره.

مرّ ما تبقى من اليوم في فيض من الاتصالات الهاتفية، وفي غمرة العمل الدؤوب نسيت كل شيء ولكن عندما رجعت إلى شقتها عاد غايڤنغ إلى تفكيرها. حذرت نفسها من الضعف أو اللين أمامه إذ سيكون من الغباء الشديد أن يعرف بأنها غارقة في حبه حتى أذنيها فلو عرف لبادرها بالسخرية والهزء.

كانت تبتسم حين اندست في الفراش، ولكن الدموع تسللت إلى وجنتيها فحبها لغايڤ سعادة مُرّة حلوة.. وهي تعرف أنها لن تراه بعد اليوم.

* * *

٨ ـ الرجل الآخر

في الأسبوع التالي، أعلن ميردوك أنهما سيقومان في اليوم التالي بزيارة المؤلف الجديد.

ـ لم يعدنا بشيء حتى الآن.. ولكنني آمل أن أبرم معه عقداً بعد ظهر الجمعة، لذلك عليك أن تبتسمي له أحلى ابتساماتك.

في اليوم التالي وصل ميردوك ليصحبها فنظر إلى ملابسها المنتقاة بإعجاب.. عندما ماتت العمة مارولا، تركت لمينا البيت والمال اللذين ورثتهما عن والديّ مينا.. واحتفظت بالميراث جانباً لابنة ابن أخيها.. ومع أن مينا، لم تفكر كثيراً في الأمر مؤخراً، إلا أنها حمدت الله على ما ورثته. فالمبلغ الوحيد الذي أنفقته منذ وفاة العمة، كان لشراء الشقة، ولكنها عمدت منذ عادت من العطلة لإحياء خزانة ملابسها.. وقد كانت بذلة اليوم أحد المشتريات.

كانت التنورة الزرقاء البترولية عادية ولكنها مصنوعة بذوق رفيع يلفت النظر أما البلوزة البيضاء فكانت مزينة بأزهار مطرزة على قماش من الساتان على الكتفين والصدر.

قال ميردوك بإعجاب:

ـ رائع جداً.. تعجبني تسريحة شعرك. إنه أجمل بكثير وهو

مسترسل على كتفيك فهو يظهرك أقرب إلى الناس.

ـ أرجو ألا يقربني كثيراً منهم.

فتح لها باب السيارة، وقال موبخاً:

ـ استيقظي أيتها الحالمة.

ليس غريباً عليها زيارة المؤلفين برفقة ميردوك.. فالمؤسسة تؤمن بتدليل المؤلفين.. وغالباً ما كانا يزوران المؤلفين بدلاً من إزعاجهم بالتوجه إلى لندن.

كانت مينا عادة تبقى جانباً حاملة دفتر ملاحظاتها مصغية إلى ما يمكن أن ينساه ميردوك.

توجها فوق الطريق الدولية نحو بريستول.. كانت الطريق نسبياً هادئة، والريف ينعم بيوم مشمس ليس فيه سوى غيوم بيضاء صغيرة تشبه ما يرسم في قصص الأطفال. اتكأت مينا برأسها إلى الخلف، تستمتع بأحاسيس ممتعة سعيدة كانت تمر بها.

كانت «غلوتشستر» أول بلدة مرا بها. عندما اجتازا شارع عريض تذكرت أن البلدة كانت يوماً منتجعاً للحمامات الطبيعية والينابيع الحارة.

أما «كوتسولد» فكانت مألوفة بالنسبة لمينا، لأنها كثيراً ما قصدتها عندما كانت تقوم بزيارة أهل كارسون، ولكنها لم تكن لتتعب من الإعجاب بجمال حقولها الخضراء والذهبية...

قال ميردوك، مخطئاً في تقدير تنهيدتها، ظاناً أنها متعبة:

ـ اقتربنا من هدفنا نحن نبحث عن قرية «وارتون ـ اندر ـ ذاهيل» ولن يمضي وقت حتى نرى اللوحة المدون عليها اسم القرية.

عندما وصلا أمام اللوحة سلك طريقاً متعرجة عبر مروج

مورقة ببقدونس البقر الذي كان يطير منها طير «الروبن» الأحمر الأشعث الريش.. أنزلت مينا زجاج نافذتها لتتنشق هواء الصيف اللذيذ، فمينا برغم تبجحات والدة كارسون تحب الريف فعلاً..

سألت مينا بفضول: «أهي بعيدة؟»

ـ ثلاثة أو أربعة أميال.. مضيفنا رجل مثير للاهتمام. لم أكن أظنه شخصاً إنسانياً إلى هذا الحد.. مظهره قاس وماكر ولكنه كاد يصعقني حين قال إنه سيجهز منزله بعائدات كتابه لتحويله إلى مركز تأهيل المشردين..

تحرك فضول مينا، فقاطعته سائلة:

ـ كيف هو شكله؟

تصورت لسبب ما، رجلاً مهيباً في الستين من عمره، أنيقاً، رشيقاً، ساحراً.

رد ميردوك: «اصبري قليلاً حتى تقابليه. ما رأيك بمخطط الكتاب الرئيسي؟»

كان قد أعطاها إياه لتقرأه في بداية الأسبوع:

ـ مؤثر جداً ومخيف تقريباً ولكنه مزيج بين الواقع والخيال.

أذهلها ميردوك بالقول:

ـ لست واثقاً من هذا.. أعتقد أن مؤلفنا يستخدم الوقائع لا الخيال ولكنه يخفيها باحتراس ليخفف من وقع صدمتها.

كانت الأفكار الرئيسية التي قرأتها مينا تدور حول تسرب أخبار عن مشروع عسكري، تحاول السلطات كتمها بكافة الطرق وقد وجدت نتائج هذا القمع المخيفة مثيرة للقشعريرة ومرعبة.

نظرت إلى ميردوك مرتبكة قلقة لتسأله:

ـ لكن كيف لها أن تكون حقيقية؟

ـ لا أدري.. غير أنني أعرف أن له اتصالات رفيعة المستوى في الجيش، وربما حصل على معلوماته الأولى منهم. آه.. يبدو أنه المكان المنشود.

وأشار إلى بوابات حديدية، بدت أمامهما فجأة على جانب الطريق.

بدت غرفة الحرس الصغيرة مهجورة، فاضطرت مينا للنزول من السيارة لفتح البوابة.. عجت الطريق الداخلية بالأعشاب البرية وبالخلنج وبنباتات الأضاليا..

قالت مينا معلقة: «كان المكان جميلاً في يوم ما».

وقع بصرها على بحيرة صغيرة مغطاة بالطحلب المائي، ثم تفرعت الطريق الداخلية فجأة.. فعبس ميردوك مفكراً في التعليمات التي أعطيت له:

ـ سنسلك الجهة اليمنى لأن المنزل الرئيسي لا يستخدم في الوقت الحالي بسبب مشاكل في السقوف.

وجدا القسم الذي يقصدانه وعندما شاهدت المنزل الملوكي الضخم حبست مينا أنفاسها.

أوقف ميردوك سيارته قرب سيارة «بورش» أنيقة.. من الواضح أن المؤلف الجديد الذي اكتشفه ميردوك لا يفتقر إلى المال.

فتح لهما الباب رجل في أواسط العمر، وقفته عسكرية، ثم أدخلهما إلى بهو مستطيل، فيه سلم مزدوج يفضي إلى رواق معمّد.. لمحت مينا الديكور الأبيض والذهبي، وروعة الثريات الكريستالية والمدفأة القديمة الطراز.. ثم انفتح أحد الأبواب.. فجأة تلاشى كل ما في رأس مينا التي تسمرت في موضعها بعدما

رحل اللون عن وجهها تاركاً إياه أبيض جافاً.

تقدم ميردوك إلى الأمام قائلاً:

- غايف! ما أروع رؤيتك! هل لي أن أقدم لك مساعدتي؟ مينا.. تعالي لتقابلي مؤلفنا الجديد.

وجدت نفسها تتحرك بحركات آلية كدمية خشبية. كانت شفتاها متشنجتين بسبب الجهد الذي تبذله لتظهر عليهما ابتسامة خفيفة. غزا جسمها برود عظيم وعجزت عيناها عن مقابلة العينين الخضراوين الباردتين اللتين تتذكرهما جيداً.

تمتم غايف بدون انفعال:

- سبق أن التقيت ومينا في الكاريبي، ثم التقينا مؤخراً في منزل أهل خطيبها. أخبريني، هل تمكنت من إقناع أهل خطيبك أنني لن أسمح لهم بالصيد فوق أرضي؟

ردت مينا رداً مناسباً، ولكنها أحست بأن ميردوك يراقبها بريبة مفاجئة. تجسدت مخاوفها كلها حين سمعته يقول لغايف:

- أقلت إنكما التقيتما في الكاريبي؟ يا لها من صدفة.. وهل استمتعت بعطلتك؟

- كانت ممتعة في بعض الأحيان.

لم تجرؤ مينا على النظر إلى أحد الرجلين.. وندمت لأنها أسرت لميردوك بأمر وقوعها في حب رجل التقته في الكاريبي، فهو ماكر بعيد النظر وسرعان ما يعرف الحقيقة:

كتمت أنفاسها حين قال غايف لميردوك:

- أفهم أنك مضطر قريباً للتفتيش عن سكرتيرة جديدة؟

بدا ميردوك حائراً للحظات، ثم قال بسرور:

- تعني حين تتزوج؟ ستبقى معي حتى وقت طويل.. إذ لم

يحددا موعداً حتى الآن. أليس كذلك مينا؟

- أجل.. هذا صحيح.

- الغداء جاهز كولونيل!

كولونيل! اتجهت عينا مينا إلى غايف فهذا ما لم يقله لها أثناء أسرهما. حين كان يتكلم عن تحمله للمسؤولية، فكرت بأنه كابتن أو مايجور..

قال غايف يشرح بفظاظة:

- ينسى لاوسون أنني تركت الجيش. كان تحت إمرتي، وتقاعد.. لكن العادات العسكرية لا تموت بسهولة.

تمتم ميردوك وهما يتبعان غايف إلى غرفة طعام رائعة الأثاث: «كولونيل.. هه؟»

كانت الغرفة مطلة على حدائق محاطة بالمروج الخضراء تحدّها من الخلف.

عاد لاوسون ليصب لهما العصير.. فشعرت مينا بأنه يحرس غايف ككلب الحراسة، والويل لمن يقترب منه.. قال لاوسون لغايف بجفاء، قبل أن يخرج:

- السيدة ميلوكس مستعدة لتقديم الغداء.. كولونيل.

قال غايف مرحاً:

- يحاول لاوسون القول إننا إن لم نجلس إلى المائدة أصيب بالجنون في المطبخ. في الواقع، أنا محظوظ بوجود لاوسون والسيدة ميلوكس مع أنهما لا يتفقان. ولاوسون، كما ترى، يكره النساء، أما السيدة ميلوكس، فتفتش عن زوج ثانٍ.. على أي حال، إنها طباخة ماهرة.. شاهدت خطيبك منذ أيام.. كان يركب الخيل مع فتاة سمراء جذابة اسمها كوليت..

ـ ربما هي كوليت سالنجر سكرتيرة كارسون وجارة أهله.

ـ يا للخبر!

رحبت مينا بالبطيخ لأنه قطع ذاك الحديث غير المستساغ. ركزت مينا على الفاكهة اللذيذة أما ميردوك فراح يحدث غايف بلباقة عن مؤلفه.

تألفت الوجبة الرئيسية من ضلوع حمل مسلوقة ومجموعة متناسقة من الخضراوات. حين دخلت السيدة ميلوكس لتأخذ الصحون، قال غايف معتذراً: «أخشى أن لا تحلية سوى الجبن والبسكويت فحينما قال ميردوك إنه سيصطحب معه مساعداً توقعت رجلاً».

ضحك ميردوك: «ذاك محال، فما من رجل قد يتمتع بهذا الجمال كله. مينا هي أفضل سكرتيرة استخدمتها. كم من الوقت سيستغرق إنهاء الفصل الأول؟ سأحاول نشر الكتاب قبل معرض الكتاب ولكن ذلك يقتضي العجلة. سأسافر إلى ميلانو في الأسبوع المقبل لأتباحث في أمر كتاب ما، فثمة شخص يدعي أنه يعرف كل شيء عن المافيا في إيطاليا.. يقول إن لديهم علاقات رفيعة المستوى مع الحكومة.. ربما في هذا مبالغة، ولكنني لا أقوى صبراً على التحقيق في الأمر».

سأله غايف بأدب: «كم ستغيب؟»

ـ أسبوعين إلى ثلاثة.. والآن فلنعد إلى مؤلفك.. متى تعطيني الفصول الأولى منه؟

من الواضح أن ميردوك يحاول إلزام غايف بعقد محدد.. ولأنها قرأت ما يمكنه أن يكتب، فهمت السبب.

رد غايف بلطف:

ـ سأعطيك الفصول الثلاثة الأولى حين تعود، شرط أن تعيرني خدمات سكرتيرتك.

تعال صوت حاد بعد وقوع سكين مينا من يدها المرتجفة، ثم قال ميردوك بسرعة:

ـ طبعاً سأجد لك سكرتيرة غايف.. في المكتب سكرتيرات كثيرات سيسرهن أن..

قاطعه غايف بالسرعة نفسها:

ـ هذا لطف كبير منك ميردوك.. لكنني أفضل العمل مع شخص أعرفه. ولا أظن أن هناك توصية بحق مينا أكثر من عملها معك. قلت إنك مسافر فلماذا ترفض طلبي؟ واعلم أنني لن أستخدم مواهبها مجاناً.

هل لاحظ ميردوك الطريقة المهينة التي أطال الوقوف بها عند كلماته الأخيرة؟

عرفت أن ميردوك يشعر بأن بينها وبين غايف شيئاً ما.. كما يشعر بأنه «الرجل الآخر» الذي أشارت إليه لذا حاول أن يتجنب طلب غايف بلباقة.. فرد غايف ببرود:

ـ الأمر عائد إليك.. إن كنت تريد تلك الفصول..

ـ طبعاً.. طبعاً.. هل لديك اعتراض مينا؟

قالت بفظاظة: «لا أدري ماذا أستطيع تقديمه من مساعدة. من المحتمل ألا أقدر على التنقل إلى هنا..»

أدركت متأخرة أنه ربما يتوقع منها الإقامة عند أهل كارسون.. ولكنها أصيبت بالخيبة حين هز كتفيه قائلاً ببرود:

ـ لن تستطيعي التنقل. إنما ليس ذلك بمشكلة، عندي نصف دزينة من الغرف الفارغة.. في الواقع، سيكون من المناسب

بقاؤك في المنزل.. وأظنك لا تعترضين على العمل مساءً؟ سأعوضك بالطبع عن عملك الإضافي.

عمَّ تعوضني؟ أرادت أن تصرخ عليه بسبب الطريقة المهينة التي ينظر فيها إليها ويحدثها بها. ولكنها كبحت كرامة لميردوك كلماتها الحادة، وردت:

- إن كان في عملي معك فائدة لإنهاء الكتاب في وقت أقصر فذلك سيكون المكافأة التي أحتاجها.

أحست بالرضى لأنها رأت بشرة غايف تحمر بشدة. لكن حين استدار ليقول شيئاً لميردوك أحست مينا بموجة غثيان تجتاحها، فوقفت بسرعة وشفتاها شاحبتان كبشرتها ثم ترنحت:

- مينا!

ما هي إلا لحظة حتى كان ميردوك إلى جانبها فاضطرت إلى الابتسام، والقول كاذبة:

- أنا بخير.. ليتني أستطيع الخروج قليلاً لأتنشق بعض الهواء العليل.

- طبعاً.

فتح غايف لها الأبواب الزجاجية ثم رافقها مفسحاً لها المجال للخروج قبله، إنها المرة الأولى التي تحسّ فيها بهذا الوهن إلى هذا الحد. وتاقت للتسلل إلى مكان بعيد لتكون بمفردها وكان من حسن حظها أن جذب ميردوك اهتمام غايف فأدخله إلى غرفة الطعام.. فسارت مينا في الشرفة المسيجة بدرابزين حجري مستنشقة الهواء العليل... كانت على وشك النزول إلى الحديقة حين شعرت من جديد بوهن شديد فاضطرت إلى إسناد رأسها إلى الحائط الحجري البارد متنفضة الجسد.

- ما بك؟ ولماذا؟

كان غايف متكئاً إلى الحاجز الحجري ينظر إلى وجهها بغضب شديد كاد يخيفها..

فسألت: «لماذا.. ماذا؟»

- لا تقولي إنك غير متعبة.. لذا أسألك ثانية.. لماذا؟

صاحت به، وقد طفح الكيل: «لا شأن لك»

- لا شأن لي؟ اعلمي أنني لن أسمح لك أثناء إقامتك تحت سقف منزلي بقضاء أوقاتك عند آل كيكورد.

ردت بحزم: «كارسون في نيويورك».

- ألم تحددا موعد الزواج حتى الآن؟ ألن تستطيعي الانتظار مدة أطول.

تكورت أصابعها بنفاد صبر في راحتيها، تتوق إلى مسح هذه النظرة الساخرة عن وجهه المتغطرس.

- مينا.. هل أنت على ما يرام؟

ظهر ميردوك في الشرفة متغضن الجبين.

- غايف هلاَّ أريتنا المنزل وشرحت لنا الخطط التي أعددتها له؟

ظنت للوهلة الأولى أنه سيرفض طلب ميردوك ولكنه على ما يبدو غيّر رأيه.

سأله ميردوك وهما يسيران في الحديقة أثناء العودة إلى المنزل الرئيسي:

- ما الذي أوحى إليك بالفكرة أساساً؟

- أوه.. لقد تطورت معي تدريجياً.. ورثت المكان عن عمي ولم أكن أتوقع ذلك الإرث. كان المنزل الرئيسي مهملاً منذ

سنوات، وقد عرضه العجوز على الحماية الوطنية للآثار ولكنهم رفضوه لأنهم لا يأخذون منزلاً كهذا بدون المساهمة في صيانته، وهذا ما رفضه جورج العجوز. وعقاباً لهم ترك المكان ينهار أمام عينيه، وكان من حسن حظي أن اهتم آخر مستأجرين به وتركاه في حالة جيدة. أما بالنسبة لتحويل المنزل الرئيسي إلى مركز تأهيل فأعتقد أن بذور الفكرة عنّت على بالي أثناء قيامي بجولة في إيرلندا الشمالية، فلا فرصة للأولاد هناك إذ تحشر الكراهية الدينية منذ ولادتهم في عقولهم ويتشربونها مع حليب الأم.. وكذلك الحال بالنسبة للأولاد الذين يصبحون في النهاية مجرمين، وضحايا للعنف العرقي.. وما أريد القيام به هو منحهم فرصة لاكتشاف طريقة أخرى للحياة.. وللعيش في مكان يعلمهم احترام النفس، والاعتماد عليها..

صمت فجأة، ثم استدرك: «آسف لقد استرسلت بالحديث».

ابتسم ميردوك: «لا تعتذر.. أنا معجب بك بل أراني أحسدك.. أتمنى لك كل النجاح».

رد متجهماً: «سأحتاج إلى دعائك هذا كما سأحتاج إلى ما يدره عليّ الكتاب».

ـ أفهم ذلك.

استداروا حول آخر منعطف في الطريق، فبرز أمامهم المنزل الذي بدا كئيباً مغماً للنفس فالقرميد مكسور والنوافذ محطمة.

سأله ميردوك فجأة:

ـ لماذا انضممت إلى الجيش؟ ألم تكن في جامعة كامبريدج؟

ـ أجل.. في تلك الأيام كنت أريد أن أصبح كاتباً.. ولكنني وجدت نفسي أفقد سحر العالم. فتركت كامبريدج قبل أن أنال

شهادة التخرج وطفت في العالم كله مدة سنتين ثم تورطت مع جماعة من المرتزقة في أفريقيا، واكتشفت أن عندي موهبة القيادة. فكان أن عدت إلى بلادي، وانخرطت في الجيش.

وبما أنه اكتسب المهارات التي تجعله لا يقدر بثمن للفرقة الخاصة في الجيش، فقد تمسكوا به.. وهذا أمر تشك مينا أن يعرفه ميردوك.

جال بهم غايف في المنزل الضخم المتداعي، يدلهم على الإمكانيات الكافية فيه. ثمة مزرعة متصلة بالأملاك يستطيع الأولاد العمل فيها.

ـ لن نستطيع أن ندعم أنفسنا بأنفسنا.. ولكن المزرعة تدر الأرباح، وثمة مكان رحب للوحدات الهندسية المتخصصة التي قد نستعين بها هنا.

كان الوقت متأخراً عندما غادر ميردوك ومينا المكان.. سارا عدة أميال بصمت، ثم قال ميردوك بلطف:

ـ إنه هو؟ إنه الرجل الذي وقعت في حبه..

ـ وهل كنت شفافة إلى هذه الدرجة؟

ـ لا ولكنني جمعت الوقائع.. ويؤسفني أن أسلمك إليه لمساعدته في كتابه.

ـ لم يكن بيدك حيلة. يظنني مخطوبة لكارسون.. ولم أقل له الحقيقة.. لأنني..

ـ لأنك لا تريدين أن يعرف بحبك له؟ لقد بدا مصرّاً على أن تعملي معه.

ردت باختصار: «عقاباً لي، فهو يظنني أجبر كارسون على زواج لا يريده.. بل اتهمني بأنني غيّرت طريقة لباسي وزينتي

لأؤثر فيه».

ساد الصمت برهة ثم قال ميردوك:

ـ مينا.. إن كنت تشعرين بأنك غير قادرة على تحمل هذا.. أو إذا شعرت أنه سيسبب لك أوقاتاً عصيبة..

قاطعته ممازحة: «كان يجب أن تكون الأدوار مقلوبة.. كيف تتغير الأمور! في الماضي كانت المرأة تكره مغويها النذل.. أما الآن.. الآن..».

اندفع منديل ابيض ناعم إلى يديها المرتجفتين.. وتركها ميردوك تبكي بضع دقائق، ثم سيطرت على نفسها.

ـ مينا.. أواثقة أنت؟ بإمكاني الادعاء بأنك غيرت رأيك.

إن فعل ميردوك ذلك اكتشف غايف أنها انفصلت عن خطيبها وهذا ما لا تريده.

ردت بثبات: «لا، لا تفعل ربما هذا أفضل ما يحدث لي فقد أتمكن بوجودي قربه من..».

ـ من التغلب على مشاعرك تجاهه.. أتظنين ذلك؟

ـ أظن أن أموراً أغرب من هذه وقعت لي.

لكنها تعرف أن ميردوك على حق وأن العيش في المنزل نفسه مع غايفنغ قد يزيدها شغفاً به.

إن لم يستطع الاحتقار والكراهية قتل حبها له، فما الذي سينجح في ذلك؟.

* * *

٩ ـ لن أعيش في ظلك

ـ ستكون هذه الغرفة غرفتك أما غرفة الكولونيل فتقع في آخر الممر.

كان لاوسون يدل مينا على غرفتها وكان قد استقبلها لدى وصولها إلى المنزل، يعلمها أن غايف في «غلوتشستر» يقوم بعمل لكنه سيعود قريباً.

بدا أثاث الغرفة التي خصصت لها مريحاً، مع أن الطراز القديم هو الغالب عليه.. الحمام كان من النوعية الرائعة..

اعتقدت مينا أن مستأجري هذا المنزل كانا زوجين عجوزين وقد تأكدت من هذا حين أتت السيدة ميلوكس حاملة صينية شاي بعد عشر دقائق.

ـ لا آتي عادة إلى المنزل إلا إذا كان لدى الكولونيل ضيوفاً للعشاء. ولكنه طلب مني البقاء لأنه يومك الأول هنا.

وهي بدون شك تمسكت بفرصة اكتشاف ما هي عليه الضيفة الجديدة.. ابتسمت لها مينا، فأردفت المرأة التي كرهت الذهاب قبل أن تشبع فضولها.

ـ إذن.. ستساعدين الكولونيل في كتابه. يتوق الجميع إليه وقد انتظروه منذ أن ورث الأملاك. إن تحويل المنزل القديم إلى

مركز للأولاد المشاكسين مخطط يفشل مع بعض الناس. ولكن: عش ودع غيرك يعيش! هذا ما قلته دائماً.. أظن أن المكان سيعجبك هنا. الكولونيل رجل بهي الطلعة.

تجاهلت مينا السؤال: «إنني بأمس الحاجة إلى هذا الشاي اللذيذ إنما عليك ألا تدللني».

- طلب الكولونيل مني أن آتي يومياً إلى المنزل أثناء وجودك فيه وقد قال إنك ستكونين مشغولة إلى حد لن تستطيعي معه تحضير الطعام.. يبدو أنك ستعملين صبحاً وظهراً وليلاً.

- تتوق المؤسسة التي أعمل فيها إلى البدء بمؤلفه الجديد وبما أن رئيسي مسافر فقد جئت لأقدم المساعدة قدر المستطاع.

- أخبرني لاوسون أنك حملت معك كمبيوتر.

- أجل إنه في غرفتي.

- أشك في أن تحتاجي إليه لأن الكولونيل وضع كمبيوتر لك في مكتبته.

وصل غايفنغ عندما كانت لا تزال تفرغ حقائبها التي ذخرت بملابس جديدة اشترتها خصيصاً للعمل، بذلات وتنانير متقنة التفصيل، وقمصان مناسبة لها. مع إن الفتيات يفضلن ارتداء الجينز للعمل، أما هي فما تزال غير قادرة على ترك العادات القديمة التي غرستها فيها العمة مارولا. ولكنها رغم ذلك حملت معها سروالاً رمته في الحقيبة في آخر لحظة على أمل ارتداؤه لدى استكشاف الأراضي التابعة للأملاك. لقد تكلم غايف عن العمل مساءاً إنما هو بالتأكيد لا ينوي العمل في كل مساء..

اعترفت لنفسها أنها تتعمد التأخير في توضيب حقائبها لأنها كانت مترددة في مواجهته.. ولكن في النهاية وجدت أن لا مجال

للتأخير لحظة أخرى.. توقفت برهة أمام المرآة تنظر إلى صورتها.. لقد خسرت وزناً كثيراً في الفترة الأخيرة ولكن اكتسب شعرها رونقاً جديداً ونَعِم وجهها باستدارة مناسبة وبشرتها بتلألؤ مشرق.

كانت ثيابها من بين مشترياتها الجديدة وهي عبارة عن تنورة زرقاء شاحبة ذات خصر مطاطي، مزررة من أعلاها إلى أدناها. ارتدت معها تي شيرت أبيض فيه رسم لفراشة زرقاء جميلة وقد بدا جميلاً جديداً، وبعيداً كل البعد عن الثياب الكئيبة التي كانت تختارها قبل لقائها بغايف.

نزلت إلى الطابق الأرضي وهي غير مدركة لشفافية وجهها وضعفه.

كان لاوسون في الردهة، وقد قادها إلى المكتبة، فقرعت بابها ثم دخلت. ساد صمت مطبق فترة طويلة كان غايف خلالها يتأمل جسدها النحيل ثم ما هي إلا خطوتان حتى كان إلى جانبها، ينتزع من شعرها الدبابيس التي ثبتتها فيه في آخر لحظة.

قال بحدة: «لا أريد أبداً رؤية شعرك معقوداً إلى فوق هكذا.. ربما لست خطيبك ولكنني سأكون ملعوناً إن قبلت الجلوس قبالتك طوال النهار وشعرك معقود كمديرة مدرسة!»

ردت تكذب: «يبدو مرتباً على تلك الحال».

- ربما.. إنما لا تعودي إلى تلك التسريحة مرة أخرى، وإلا أريتك كيف يمكن أن يصبح غير مرتب.. تعالي إلى هنا، أريد أن أريك شيئاً.

أجفلها تغيير دفة الحديث بهذه السرعة، ولكن عندما عبس خفت إليه تحدق مرعوبة إلى «كومبيوتر» مركز على طاولة

منخفضة. قال لها وهو ينحني فوق الآلة ليشغل مفتاحها:

- سأعلمك كيفية استخدامه فهو أحدث جهاز في عالم الكمبيوتر.

عندما اضطرت للالتصاق به استطاعت أن تشم رائحة عطره المنعشة فاستجابت مشاعرها لقربه منها.

- هل من خطب؟

أشاحت عينيها عن وجهه وقلبها يضرب كالمطرقة.

- لا.. لا شيء.

- جيد. والآن راقبي هذا..

ثم راح يشرح بعض طرق استخدام هذا الجهاز.

ولكن عندما وجدها على دراية بهذه الآلة قال لها:

- لديك خبرة فيه إذن..؟

- أجل.. لدينا جهاز شبيه به في المكتب.

- عظيم، فهذا يعني أننا لن نضيع الوقت في التمرّن عليه. أقترح أن أملي عليك ما أريد في الصباح على أن أتركك حرة لطباعة ما أمليته عليك بعد الظهر. ثم أراجع عملك بعد ذلك وإن احتجنا إلى تغيير شيء ما غيرناه في المساء.. متى يعود كارسون من نيويورك؟

أجفلها السؤال وبما أنه لم يكن لديها فكرة عن موعد عودته قالت كاذبة: «لست واثقة متى يعود فذلك وقف على سرعته في إنجاز أعماله».

- هل أخبرته كل شيء عن رحلتك؟

رفعت ذقنها: «ألا ترى أنك تتدخل في شؤوني؟ أنا أعمل عندك ولكن ذلك لا يشمل أن تسألني عن حياتي الخاصة»..

قاطعها بحزم: «ولكنني لا أريد أن تبقي حزينة طوال الوقت بسبب اشتياقك إلى حبيبك.. فهذا يعيق الإنتاج».

صاحت به، ناسية كل المخاطر:

- ماذا تقترح إذن؟ أن تحل مكانه؟ لا تستطيع.

- أنت على حق، فلن يكون لك رغبة في هذا.

منع رنين الهاتف الحاد مينا عن إعلان رغبتها في الرحيل فوراً!

التقط غايث السماعة ثم سرعان ما استرخى وجهه القاسي إذ حل محل العبوس ابتسامة تسلية.

سمعته مينا: «وأنا اشتقت إليك ريبيكا..»

وقفت تهم بالرحيل ولكنه أشار إليها أن تجلس ثم ظلت عيناه مستقرتين على وجهها وابتسامته تزداد عمقاً وهو يصغي باهتمام إلى المتحدثة في الناحية الأخرى.

- لا.. أنا آسف. لا أستطيع المجيء إلى لندن في الوقت الحاضر.. اسمعي، لماذا لا تأتين أنت إلى هنا؟

سمعته مينا يضحك، ثم ارتد عنها. فنظرت تأدباً إلى خارج النافذة، متعمدة سدّ أذنيها عن صوته متسائلة عمن تكون ريبيكا هذه التي تجعله يبتسم بسهولة.

اعتذر لها، حين أعاد السماعة:

- آسف لهذا، إنها صديقة قديمة.. ستأتي لقضاء بضعة أيام عندي.. والآن أين كنا؟ آه أجل.. حسناً، إن كنت تجيدين استخدام هذا الكمبيوتر، أقترح أن تستريحي قليلاً قبل العشاء.. فأنا أرى من خلال وضعك الصحي أنك لا تقوين على العمل الكثير.

في النهاية، ادعت مينا التعب، وأرسلت رسالة مع لاوسون تعتذر عن العشاء، ولكن ما أدهشها أن السيدة ميلوكس وصلت وهي تحمل صينية طعام شهية.

ـ قال الكولونيل إنك متوعكة.. ربما السبب طول مسافة السفر من لندن.. أعددت لك بيضاً مقلياً لذيذاً، وإبريق شاي.

شكرتها مينا، ولكنها شعرت بالذنب لأنها تلقي على كاهل هذه المرأة المزيد من العمل.

لم يحدد غايف لها الوقت الذي يريد بدء العمل فيه ولكن مينا نزلت إلى الطابق الأرضي في الثامنة ليتسنى لها تناول الفطور قبل التوجه إلى المكتبة في التاسعة.

بدت الصدمة على السيدة ميلوكس حين أصرّت مينا على تناول قطعة خبز محمصة وكوب قهوة. وتمتمت:

ـ أنت سيئة كالكولونيل ولكنه على الأقل يتناول بعض البيض المخفوق.

ـ إذن، لقد تناول الكولونيل فطوره؟

أحست بالراحة وبخيبة الأمل فهي لا تريد أن تبدأ خطوة خاطئة منذ يومها الأول. إنها مصممة رغم مشاعرها نحوه على الالتزام بالعمل قدر المستطاع.

أكدت لها السيدة ميلوكس:

ـ آه! أجل، يتناول فطوره دائماً في السادسة والنصف.. لقد اكتسب هذه العادة من الجيش.. عنى فكرة طلب مني أن أقول لك إنه يريد منك التوجه إلى المكتبة حالما تنهين فطورك. إن من عادة الكولونيل الخروج بعد الفطور للسير على القدمين ولكنه عاد بدون شك.

كانت الساعة التاسعة إلا عشر دقائق عندما دقت مينا على باب المكتبة. كان غايف يجلس خلف مكتب ضخم يدرس بعض الأوراق، فرفع رأسه عنها لدى دخول مينا التي قالت بلهجة رسمية:

ـ صباح الخير.

مسدت تنورتها الكحلية بأصابع مرتجفة.. تحس بالارتباك منه. وقف ثم استدار حول المكتب ليقف أمامها.

ـ السكرتيرة المثلى.. لكنني مسرور لأنك التزمت بما قلته لك عن شعرك.

ردت بهدوء، متجاهلة سخريته:

ـ أنا جاهزة الآن.

بعد ساعتين، كادت أصابعها تتقلص من كتابة المختصرات الاختزالية لذا تنفست الصعداء حالما ظهرت السيدة ميلوكس مع صينية قهوة. قال غايف عندما بدأت مينا تسكب القهوة:

ـ بدون سكر.. أتريدين الاستراحة مدة نصف ساعة؟ لا أريد إرهاقك.

أشعلت كلماته الأخيرة غضبها.. إنها مرهقة ولكنها ستكون ملعونة إن تركته يلاحظ تعبها.. فقالت بحزم:

ـ لا أظن هذا ملائم. فلنكمل عملنا. إن واظبنا على العمل الدؤوب أنهيناه في وقت أسرع.

بدا لسبب مجهول أن كلماتها أزعجته لذا تعمد الإسراع في الإملاء فكان أن وجدت صعوبة في اللحاق به، كان جزء من تفكيرها يركز على ما يقوله، والنصف الآخر يتعجب من قدرته على العمل بدون تردد أو تدقيق.

بعد الثانية عشرة والنصف، أعلن:

ـ أظننا سجلنا أهم نقاط الفصل الأول. الغداء في الواحدة. كم من الوقت تحتاجين لصف ما أمليته عليك؟

نظرت إلى عدد الصفحات في دفترها، ثم قدّرت أنها بحاجة إلى فترة العصر كلها وإلى جزء كبير من المساء.. فقالت:

ـ لست واثقة.. ولكنني لن أتوقف حتى أنهي صفها.

وكان وعداً ندمت عليه، لأن ظهرها تشنج فشعرت بالألم لأن الوهن عاد يجتاح كيانها.

قالت السيدة ميلوكس بسخط في الساعة السادسة عندما دخلت لتأخذ صينية الشاي:

ـ أما زلت تعملين؟

استغلت مينا المقاطعة لترى كم بقي لديها من صفحات. وعندما أدركت أنها ما تزال في منتصف الطريق غار قلبها، فقالت معتذرة:

ـ سأتخلى عن العشاء الليلة سيدة ميلوكس. أكثير عليّ أن أطلب كوب حليب وبعض الفاكهة؟

ـ بالطبع لا. ولكن لو طلبت رأيي لقلت إنك تجهدين نفسك، فكيف تعملين طوال النهار ونصف الليل وليس في معدتك شيء.

كان غايف قد ذهب إلى بلدة «باث» لمراجعة بعض الكتب التي يحتاجها. وفيما كانت غارقة في العمل شعرت بأنها تترقب بحذر عودته.

أخذت في تمام الثامنة تحرك كتفيها المتشنجتين وتوقفت عن العمل لتحتسي الحليب متسائلة عن مكان وجوده.. ربما ذهب

يزور بعض الأصدقاء.. ربما ريبيكا.. مزقتها الغيرة ثم شعرت بالغضب لأنه في الخارج مستمتعاً فيما هي تجهد فكرها وجسدها لتنهي كتابه.

أشارت الساعة إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً عندما سحبت آخر ورقة من الآلة ولكنها بسبب الإرهاق لم تستطع إلقاء نظرة عليها.. ثم التقطت صينية العشاء وحملتها إلى المطبخ وبعد ذلك راحت ترتقي الدرج.

وجدت في غرفة النوم صعوبة في نزع ملابسها. ولكن بسبب توتر عضلاتها شعرت بحاجة ماسة إلى حمام ساخن ليساعدها على الاسترخاء.

كانت على وشك الإغفاء حينما سمعت هدير محرك البورش.. لقد تركت الأوراق المطبوعة على مكتب غايف وعددها خمس وأربعون صفحة.. ابتسمت برضى قلق لأنها متأكدة من أنه لم يتوقع منها إنهاءها خاصة وهو قد أملى عليها ما أملى بغية معاقبتها.

استيقظت من نوم متقطع في الصباح التالي في السادسة. فالتقطت أذناها وقع أقدام. نظرت إلى ساعتها، قبل أن تتذكر أن السيدة ميلوكس أخبرتها أن غايف يتناول فطوره في السادسة.

فكرت بسخط: حسن، فليتناوله في السادسة، ولكمت الوسادة.. أيعني هذا أن على الجميع الاستيقاظ في هذه الساعة اللعينة؟

توجهت إلى المطبخ خائرة القوى. فما زال ظهرها يؤلمها وما زالت عضلاتها متشنجة. قالت السيدة ميلوكس بحدة وهي ترى وجهها الشاحب:

ـ إن ما تحتاجين إليه هو طعام مناسب. أيها الشبان هل تظنون أن الجسم قادر على الاستمرار وأنتم لا تطعمونه جيداً؟!

في تمام التاسعة توجهت إلى المكتبة، فوجدت غايف واقفاً أمام النافذة عابساً وهو ينظر إلى الأوراق المطبوعة.

قال لها ببرود: «في الصفحات الأخيرة أخطاء عديدة وضعت علامات عليها مع التصحيح المناسب.. إن كنت جاهزة أمليت عليك مقاطع أخرى من الكتاب».

تأملت عيناه ببرود جسمها النحيل في تنورتها الكحلية وبلوزتها الرقيقة المنقطة.

شعرت مينا بألم في أصابعها عندما أنهت عملها. ولمّا نظرت إلى ساعتها علمت أن الساعة تقارب الثانية عشرة ولكن عليها حتى تصحيح ما أشار إليه بالقلم قضاء الظهيرة وما بعدها.

قال غايف لها:

ـ أنا مضطر للذهاب لرؤية بنّاء، كلفته بالعمل في المنزل الرئيسي.. وسأمضي طيلة العصر هناك.

عندما خرج فكرت أنه ربما علي أن أكون شاكرة له هذه الرحمة. فبعيداً عنه ستتمكن من التركيز على عملها ولن يشغلها بذلك قربه منها، وردات فعل جسدها الخائنة. كان كيانها يذوب حباً به رغم طريقته الفظة في معاملتها ويا لقلبها الخائن!

صاحت السيدة ميلوكس عندما دخلت إلى المكتبة حاملة صينية الشاي في الساعة الثالثة:

ـ أنت تجهدين نفسك كثيراً واعلمي أنك لن تستفيدي من ذلك شيئاً!

عادت بعد نصف ساعة مضطربة، لتقول لمينا إن ابنتها

الكبرى، توشك أن تضع مولودها قبل شهر على الموعد المحدد.

ـ يجب أن أذهب، فلا أحد يعتني بابنها الأول جون.. والده في العمل وقد وعدت ابنتي برعايته. آه! غير أنني لا أحب أن أخذل الكولونيل.

ـ سيتفهم بدون شك وضعك فلا تقلقي، اذهبي فقط.

ـ حضرت لكما قطعة لحم مسلوق للعشاء، ولم يبق سوى البطاطا والخضروات.

ما إن خرجت حتى مددت مينا أطرافها المتعبة.. ما زال أمامها عمل كثير ولكن ظهرها يؤلمها بشدة لذا عليها أن تستريح قليلاً. جلست في المقعد الجلدي المريح تنشد الراحة مدة عشر دقائق ولكن الدقائق العشر امتدت إلى عشرين.

عندما انفتح باب المكتبة لم تتحرك، وكبت غايف صيحة استغراب بسرعة، ثم اشتد ضغطه على فمه حالما شاهد ظلال الإرهاق حول عينيها..

علّق لاوسون بكآبة:

ـ لقد أجهدت الفتاة نفسها بالعمل.. والسيدة ميلوكس غير موجودة إنما في الفرن بعض الطعام.

ـ اذهب وحضر لنا الطعام.. سأحمل الآنسة هنتلي إلى غرفتها، فلا فائدة من إيقاظها.

عندما استيقظت كانت الدنيا مظلمة حولها. مضت عدة ثوان قبل أن تدرك أنها ليست في المكتبة، بل في سريرها.

تحرك ظل قرب الباب.

ـ إذن.. لقد استيقظت.. هل أنت جائعة؟

هزت رأسها مرتبكة بشكل مخيف ثم أصبح قلبها في حلقها

لأنه وقف أمامها، يتفرس في الظلام بحثاً عن وجهها، بانتظار الرد على سؤاله.

قالت بفظاظة: «لا، أنا متأسفة لأنني نمت. أرى أنني أفتقر إلى الطاقة الكافية منذ...»

تورد وجهها بشدة تحت غطاء الظلام فعضت شفتها، وهي تحس بالتوتر الذي يصل إليها من جسم الرجل المشرف عليها.

تمتم بفظاظة: «اللعنة عليك مينا».

ثم انحنى فجأة لتحتضن ذراعاه جسمها المسترخي، فسرت حرارة عناقه في كيانها كله وأحرقت أصابعه بشرتها. وأحست بخفقان قلبه السريع الملحّ وعرفت أن قلبها يحاكي قلبه. فجأة دقت أجراس الإنذار في رأسها.. فهي لا تدري ما الذي أشعل عواطف غايڤ.. ولكنها تعلم أن عواطفه تلك خطر عليها فقد تكشف بذلك نفسها أمامه.. ولهذا السبب وحده، قاومت جاذبيته الشديدة المغناطيسية، وتصلبت بين ذراعيه، تجبر نفسها على البرود.

ـ لا.. غايڤ.. أنسيت أنني مخطوبة؟

أحست بانتفاضة جسمه ثم رأت عيناه تمعنان النظر في وجهها مخترقة كيانها وكأنه ينوي أن يقرأ ما يدور في رأسها. وقال بعذوبة: «أريد أن أنسى ذلك. ليتني أنسى!»

عندما لم ترد، أخفض رأسه ليريحه على كتفها، وقال بصوت أجش: «هل أكمل..»

قالت لا بصوت مخنوق ولكنها تأخرت في الرفض وبدل أن يوقفه رفضها أعطاه جواز مرور. ذهبت جميع التحذيرات أدراج الرياح وأخذت بلا وعي تبادله عناقه بشغف مضاعف.

ـ مينا!

كان اسمها مجرد آهة مخنوقة.. احترق احتجاجها تحت ضغط ذراعيه.. ولم تعد ترغب في أن ينتهي العناق وما أرادت أن يتدخل الواقع في عالمها الخرافي الذي تشعر فيه بأن غايڤنغ يبادلها مشاعرها.

ـ أتعلمين ماذا يفعله وجودك هنا بي؟ لقد أصابني بمرض سرى في دمي.. والله يعلم أنني أكره نفسي من أجل ذلك.. لكن هناك أحياناً سعادة مطلقة في استسلام المرء لضعفه وتهوره، حيث يتغلب اندفاعه على كراهية النفس التي سيتحملها فيما بعد.. إنها إحدى تلك اللحظات مينا.. أنت تريدينني رغم خطوبتك لكارسون..

كانت مينا أبعد من أن ترد بوعي فيداها انعقدتا خلف رأسه تنعمان بملمس شعره الأسود...

قال لها متابعاً بصوت مخدر:

ـ لا يبدو لي طعمك مختلفاً.. على الأقل، ليس من الظاهر..

ليتها تستطيع البوح بحقيقة مشاعرها تجاهه وليتها تتجرأ على إخباره بفسخ خطوبتها لكارسون. ولكن كيف لها ذلك وهي تجهل حقيقة مشاعره نحوها.

سألها مرة أخرى وكأنما يتابع تعذيبها:

ـ هل تعانقين كارسون بهذا الشغف؟ أخبريني الحقيقة مينا!

أعادتها كلماته الوقحة إلى الواقع وذكرتها برأيه المنحط بها.. حرقت الدموع مآقيها ولكن طرقة خافتة على باب الغرفة أرسلت الرعشة إلى جسمها وجعلت غايڤ يرتد عنها ساخطاً.

سمعت مينا صوت لاوسون ينادي:

ـ مخابرة هاتفية كولونيل.. إنها الآنسة ريبيكا.

ريبيكا..! ارتدت مينا تدفن وجهها في غطاء السرير، وقد تغلب عليها ألم تحررها من الوهم.

* * *

ـ عرفت أن خطيبك قد عاد.

انصبت الكلمات عليها كمياه باردة.

كانا يتناولان الغداء وهذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن شيء شخصي منذ تلك الليلة في غرفتها.

ـ رأيته هذا الصباح، كان يتنزه على ظهر جواده.. مع سكرتيرته.

تمكنت مينا من الاستمرار في تناول الطعام بدون الإفصاح عن صدمتها.

ـ ألم تعزفي؟ لا أراه في توق إلى الزواج بك.

ـ وصلت الآنسة ريبيكا كولونيل.

لم تكن المرة الأولى التي تبارك فيها مينا تدخل لاوسون. لقد عرفت من السيدة ميلوكس التي أنجبت ابنتها صبياً آخر، أن غايف طلب منها تحضير غرفة لصديقته، وكانت الغرفة غير بعيدة عن غرفتها.. أحست مينا بالراحة لأنها لم تكن ملاصقة لغرفته، حتى إن كانت في الجناح الرئيسي الذي يشغله. ولكن هل سيحول ذلك دون أن تشاركه ريبيكا أو يشاركها هو الفراش؟

حالما توجه ليستقبل ريبيكا قصدت مينا المكتبة.. لقد أوشكا تقريباً على إتمام الفصل الثالث.. ولكنه حرص منذ وجدها في مكتبته نائمة على ألا يرهقها بالعمل.

كانت تعيد النظر إلى ما طبعته عندما دخل برفقة امرأة فاتنة حمراء الشعر، بعثت ابتسامة تلك المرأة الرعدة إلى مينا.

قالت المرأة متذمرة وعيناها الزرقاوان تقدحان شرراً على وجه مينا:

ـ إذن.. هذا ما يقيدك إلى الريف!

رد غايف بصراحة وقحة:

ـ أجل.. كتابي.. لا شيء غيره يبعدني عنك.

لف ذراعه حول خصرها وشدّها إليه..

أحست مينا بالألم وحاولت التركيز على ما تفعله.. ولكنها لم تكن ترى سوى وجه غايف، وجسد غايف وذراعي غايف حول فتاة أخرى!

عندما تركها أخيراً قالت ريبيكا بصوت كصوت هرير القطة:

ـ حبيبي.. هذا ما أسميه ترحيباً! ظننتك تكذب عليَّ حين قلت إنك اشتقت إليّ.

سمعته مينا يسألها وهما يغادران المكتبة:

ـ كم ستمكثين عندي؟

لم تسمع مينا الرد.. ولكن الأيام القليلة التالية كانت بمثابة عذاب شديد لها. بدا أن قدرها أن تراهما معاً متعانقين علماً أنها بذلت جهدها لئلا تلتقي بهما ومع ذلك كان يحدث عكس ما ترغب فيه.

في صباح أحد الأيام قالت السيدة ميلوكس باستهجان بعدما أمرت بتحضير صينية فطور لريبيكا التي ما تزال في الفراش مع أن الساعة تجاوزت العاشرة.

ـ ما هذا بعدل. إنها قطعة خالية فليس فيها سوى عقل

فارغ.. وسيكون الكولونيل أحمق الحمقى إن ارتبط بها.

ردت مينا بصوت قاسٍ:

- إنه رجل كامل سيدة ميلوكس.. والآن هلا عذرتني سأحاول إنهاء هذا الفصل من الكتاب.

في الأمسية الثالثة على وجود ريبيكا، اعتذرت مينا عن العشاء.. وفي صباح اليوم التالي أعطت غايف الفصول الثلاثة كاملة قائلة بهدوء:

- إن لم يكن لديك مانع عدت إلى لندن بعد ظهر هذا اليوم، فلقد أنهيت العمل الذي جئت من أجله.

رد بخفة يقاطعها: «بل لدي مانع».

ما تزال ريبيكا في الفراش ولكن غايف اعتاد لسبب ما على تأخير موعد فطوره ليتوافق مع موعد فطور مينا.. ولم تجرؤ على التفكير في الأسباب كما لم تجرؤ على التساؤل عما إذا كان لهذا علاقة بالساعات التي كان يقضيها في الليل مع ريبيكا بعدما تأوي هي إلى النوم.

رفضت مينا التجاوب مع الطعم لأنها تشعر بأنه يرمي طعماً لها. ولكنها لم تفهم السبب. ما دام لديه ريبيكا فلماذا يستمر في تعذيبها؟

ذكرها غايف: «وعد ميردوك أن تبقي أسبوعين أو ثلاثة».

- لكننا أنهينا الفصول الثلاثة.

- نستطيع المباشرة بفصول أخرى. وما أشد ما ستكون سعادة ميردوك حين نفعل.

ولم تستطع الإنكار..

سألها بعذوبة: «لمَ العجلة؟ أنت تهينيني خاصة أنني تجشمت

عناء دعوة خطيبك هذا الصباح».

كادت مينا تغص بقهوتها.. وتلاشى اللون عن وجهها.. كارسون هنا! أغمضت عينيها. يا الله.. ماذا ستفعل الآن؟ فلن تدوم حقيقة خطوبتها لحظة أمام غايف، وما إن يفهم الحقيقة حتى يبدأ بتمزيق ما تبقى من كرامتها واحترامها لنفسها، هذا عدا حبها له..

- أتظنين أن اليوم مناسب لتحديد موعد الزفاف أمام الجميع لتحرجيه؟

صرخت بتهور: «أكرهك! أكرهك!»

دفعت كرسيها إلى الوراء وخرجت من الغرفة وفي داخلها رغبة مجنونة تدفعها إلى الرحيل، ولكن عنادها وشجاعتها لم تسمحا لها بذلك. إن قُدّر لها الخزي والذل فلتتحل بالشجاعة لمواجهة الأمر بصلابة.

مر الصباح بطيئاً، بعد الحادية عشرة سمعت مينا وقع حوافر جياد.. كانت في الردهة واقفة في مكانها مسمرة، عندما تقدم غايف قائلاً:

- حسناً.. ألن ترحبي به؟

تحركت كالرجل الآلي نحو الباب ولكن الشمس أعمت بصرها..

- مينا.. يا الله! ماذا تفعلين هنا؟

رفعت مينا رأسها تحجب عينيها بيدها.. كان كارسون يمتطي جواد الصيد الذي يحتفظ به في إسطبل والديه، وإلى جانبه كوليت سالنجر الأنيقة المتشامخة فوق صهوة فرس أصيلة..

تحب مينا الجياد، ولكنها تخافها قليلاً.. ارتدت قليلاً

وعيناها متسعتان في خوف مفاجيء بعدما تراجعت فرس كوليت التي راحت ترفس الهواء بقوائمها، بسبب سوط فارستها الذي شق الهواء قبل أن يضرب الحيوان على جانبه، ليندفع إلى الأمام، وعيناه تدوران بغضب مهدد.

لا تدري ما حدث بعد ذلك فما هي إلا لحظة حتى كانت على مسافة آمنة من الجوادين، ولكنها في اللحظة التالية وقفت تحدق برعب إلى فرس كوليت التي اقتربت منها، وحوافرها تنخفض نحوها ببطء.. ببطء..

- كيكورد!

كسر صوت غايف الغاضب شلل أفكارها ثم شعرت بذراعيه تبعدانها عن خطر الفرس الداهم.

سمعت غايفنغ يقول بغضب:

- بالله عليك يا رجل.. لماذا لم تفعل شيئاً؟ كادت تقتلها!

خرقت ضحكة كوليت الحادة الساخرة جو الصياح:

- لا تكن سخيفاً! لم تكن في خطر حقيقي.. كان عليها الابتعاد عن طريقي.. إنها لا تعرف الأشياء الأساسية عن الجياد.. هذا كل شيء.

انقطع الكلام حالما وصلت سيارة ما. وعندما تعرفت مينا إلى سيارة ميردوك أخذت تعدو نحو ميردوك الذي كان قد ترجل منها.

- مينا.. يا فتاتي العزيزة.. أنهيت أعمالي في إيطاليا باكراً وقررت العودة لأرى كيف تسير الأمور هنا.

قال غايف بهدوء: «تلقت لتوها صدمة غير سارة».

ثم التفت إلى كارسون وكوليت ليقول بحقد:

- أما كنتما على وشك الرحيل؟

صاح كارسون:

- أردت التحدث إليك عن الصيد.. اسمع أظن أن الوقت قد حان لتقبل المنطق. ثمة أناس في هذه المنطقة لا يرحبون بوجود عصابة من المتشردين تدور حولهم..

قالت كوليت بنبرة حادة:

- أجل.. والدي قاضي في المنطقة، ولا يوافق على هذا.. إنه أمر غير مناسب.

بدا صوت غايف لمينا هادئاً إلى درجة الخطر فارتجفت وهي بين ذراعي ميردوك:

- لا! حسناً.. أؤكد لك آنسة أن في المنطقة أناساً ينظرون إلى بني جنسي نظرة مختلفة عن نظرتك ولهؤلاء الناس وزناً يفوق وزن أبيك.

أدارت كوليت فرسها في دائرة كاملة، وقادتها من حيث أتت، يلحق بها كارسون.

التفت غايف يسأل مينا بفظاظة:

- أتظنين حقاً أنك ستجدين السعادة مع حياة كهذه ومع آراء ضيقة الأفق كتلك التي تفوها بها؟

لم تستطع النظر إليه واكتفت بأن التفتت إلى ميردوك قائلة:

- أريد الرحيل.. أرجوك ميردوك.. أيمكننا الرحيل؟

* * *

١٠ ـ لحظة خارج الزمن

أعاد ميردوك آخر ورقة من النص، وصاح متنهداً:

ـ سيكون رائعاً.

كان يقرأ الفصول الثلاثة الأولى من كتاب غايف.

لم يمض على عودة مينا إلى لندن سوى أسبوع واحد، ومع ذلك شعرت بأن هذا النص قد طبع في حقبة أخرى من حياتها.

أحست أنها لن تقدر أبداً على إظهار مدى امتنانها لميردوك الذي تحرك بحزم في ذلك اليوم الفظيع لإبعادها عن مسرح الذل، قبل أن يفسح المجال لغايفنغ أو كارسون فرصة لطرح أي سؤال عليها.

قال لها بإعجاب:

ـ تبدين أحسن حالاً.. كيف تشعرين؟

ـ بخير..

لقد تحسنت صحتها في هذه الآونة ولم يكن هذا حالها في الأسابيع الأولى على عودتها من العطلة المشؤومة.

استرعى انتباهها صحيفة على مكتب ميردوك.. فتلاشى اللون من وجهها قليلاً وهي ترى صورة غايف مع ريبيكا.

قال ميردوك معلقاً:

ـ بدأت خطة غايف بالنسبة لمنزله تسترعي اهتمام الصحافة. هل سمعت عنه شيئاً منذ عودتنا؟

سألت باستغراب: «وهل عليَّ أن أسمع عنه شيئاً؟»

كان في عيني ميردوك شفقة ممزوجة بشيء آخر ربما الإعجاب..

ـ اعتقدته يرغب في شكرك على العمل الرائع الذي أنجزت فيه نصف عمله.. لم يكن ذلك بأمر سهل.

ـ لم يكن سهلاً.

فكرت فوراً في ذلك اليوم الذي نامت فيه بسبب الإرهاق على المكتب كما تذكرت كيف استيقظت لتجد غايف في غرفتها.

كانت تتجنب بشتى الطرق التفكير في غايف ولكن لم يكن ذلك بالأمر الهين، إذ كانت ذكراه أحياناً تتسلل إليها عن غير وعي منها فتطغى على كل شيء آخر.

بعد ظهر ذلك اليوم، رن جرس الهاتف، ولكن ما إن التقطت السماعة حتى سرت في أوصالها الصدمة إذ لم يكن المتحدث سوى غايف الذي سأل عن ميردوك.

دام حديث الرجلين عشرين دقيقة وعند انتهت المخابرة دخل ميردوك إلى مكتبها وعلى وجهه تعبير القلق فغاص قلبها خوفاً.. وسألت:

ـ ما الخطب؟ هل غير رأيه بشأن الكتاب؟

ـ لا.. ليس للأمر علاقة بذلك. يريد أن تعودي للعمل معه. آه! لا بأس عليك، قلت له إن الأمر غير ممكن.

ولن يزيد همومها بالقول لها إن غايف حمله مسؤولية تأخير إنجاز النص المتبقي عن الوقت المحدد.

- يستحوذ عليه هاجس بأن كل السكرتيرات عاجزات عن إنجاز الطباعة بمستوى إنجازك. تعرفين أن بعض المؤلفين يعجزون عن العمل إن لم ينل كل شيء إعجابهم.

بل الحقيقة أن غايف لم يتمكن من إيجاد من يستطيع إرهابها كما فعل معها، أو من يستطيع تعذيبها. لقد لاحظت أنه غالباً ما كان متوحشاً معها، وأن إملاءه يتضاعف دوماً ومرد ذلك إلى تدفق الهرمونات التي يسببها الغضب.

بعد لحظات أردف ميردوك يطمئنها:

- لا تقلقي.. قلت له إنني لن أتخلى عنك أبداً، ثم عرضت عليه أن أجد بديلاً عنك. والآن عليك المباشرة بالاتصال بمكاتب الاستخدام لنرى ما نستطيع فعله. أعرف أن الأمر لا يعنيني مينا ولكن هل أنت متأكدة من عدم اهتمامه بك؟ عندما أفكر في ما أخبرتني إياه عنه أستغرب رغبته في أن تعملي عنده.

ردت بمرارة: «إنه يستمتع بتعذيبي. أعتقد أنها وسيلته لمعاقبتي فرغبته فيّ تجعله يعي ضعفه، وهو يكره الضعف».

- هكذا إذن.. حسناً.. لا أعتقد أننا سنسمع عن الأمر شيئاً بعد الآن.. اتصلي بجون سايمون أريد التحدث إليه.

رزحت لندن تحت ضغط موجة حرارة شديدة قبل عودة مينا إليها وظلت تلك الموجة خمسة أيام أخرى بعد عودتها لذا عندما سمعت في النشرة الجوية أن الجو سيتغير بعد ظهر هذا اليوم شعرت بالسعادة.

ابتسم ميردوك لها إعجاباً عندما دخلت إلى مكتبه:

- تبدين منتعشة.

كان يرتدي بذلة خفيفة رسمية، سترتها مرمية فوق خزانة

الملفات..

- لدي اجتماع مجلس إدارة في العاشرة.. ولكنه لن يستمر أكثر من ساعة.

بدا المكتب بعد خروجه أهدأ حالاً فبدأت مينا بالعمل بسرعة وكفاءة حتى تذكرت رسالة أعطاها إياها ساعي البريد فيما كانت تهم بالخروج من شقتها ذلك الصباح.

لم يكن الخط على الغلاف العاجي اللون الفاخر مألوفاً لها.. تأملته قليلاً قبل أن تفضه.

إنها رسالة من بيني هولاند، فشعرت مينا بعقدة ذنب لأنها لم تراسلها رغم وعدها الصادق بأن تبقى على اتصال بها. كانت الرسالة طويلة زاخرة بالكلام فتذكرت المرأة العجوز. ولكي تعوّض عن نسيان تلك المرأة الطيبة أخرجت مينا بعض الأوراق من درج مكتبها، وبدأت تكتب الرد.

سألتها بيني في الرسالة عما إذا حددت وكارسون يوماً للزفاف.. ولأنها لم تشأ الكذب أخبرت بيني بأن الخطوبة انتهت ولكنها امتنعت عن تحديد السبب وشرحت بأنها أعطت كارسون خاتمه إثر عودتها من العطلة. وأنهت الرسالة قبل وقت طويل من عودة ميردوك من اجتماعه الذي طال أكثر مما ظن. دخل عابساً فسألته مينا عن الخطب لأنها تعلم أنه يحب أن يقص عليها ما يجري معه عندما يكون محبطاً بسبب عدم تفهم أفراد مجلس الإدارة لما يقوم به.

- ليس في الواقع.. اتصلي بغايفنغ كلينتيس لو سمحت.

ولم تسأله المزيد فمن الواضح أن فكره مشغولاً جداً.. طلبت رقم هاتف غايف بأصابع مرتجفة ثم راحت تهيىء النفس لسماع

رده.. ولكن عندما سمعت صوت ريبيكا الحاد بدل صوته شعرت بأن مياهاً باردة انصبت على رأسها. ذكرت اسم غايف متلعثمة، ونسيت شرح سبب اتصالها.

ما إن سمعت رده المقتضب «كلينتيس هنا!» حتى حولت المخابرة إلى ميردوك بدون أن تنفوه بكلمة. بدا لها أن الضوء الأحمر في أسفل جهازها قد طالت إضاءته، ثم وصل مؤلف آخر كان على موعد مع ميردوك فاضطر الرجل للانتظار عشر دقائق. عندئذ قامت مينا بما تقوم به عادة في مثل هذه الظروف، فدونت ملاحظة لميردوك تعلمه بأن من تواعد معه موجود عندها، ثم سارت بهدوء لتضع الملاحظة على مكتبه. وفيما كانت تهم بالدخول سمعت ميردوك يقول بمرارة:

ـ اسمع، أفهم وجهة نظرك غايف.. ولكن لا تعجبني طريقتك في تجاوزي. قلت لك إنني لا أستطيع الاستغناء عن مينا.. والآن، أعضاء مجلس الإدارة ينفخون في ناري هذا الصباح متهمين إياي بالإعاقة.

عندما رفع رأسه ورأى وجه مينا الشاحب الأبيض.. قال بسرعة:

ـ اسمع.. يجب أن أنهي المكالمة الآن.. سأكلمك ثانية.

سألت مينا بشفتين جافتين:

ـ هل هذا صحيح؟ أكان هذا هو سبب الاجتماع هذا الصباح؟ لأنك قلت لغايف إنني لا أستطيع العمل معه؟

ـ أنت أحد الأسباب.. أجل.. بعدما قرأ رئيس مجلس الإدارة الفصول الأولى تحمس لها بجنون.. حتى قرر معاملة غايف معاملة الابن المدلل..

همست بصوت أجش مستنكر: «أتعني..»

ـ لا.. لست مضطرة للعمل عنده. أقنعت المجلس أن بإمكاني إيجاد سكرتيرة كفؤة بدون الاستغناء عن مساعدتي الثمينة.

ـ لكن، هل أقنعت غايف؟

تلاعب ميردوك بقلمه:

ـ ليس بعد.. ولكنني سأقنعه، فلا يقلقنك هذا.

كان الكلام أسهل من التنفيذ، فقد قلقت مينا بشدة، طوال اليوم الكئيب الضاغط الحار الذي انتهى بدون العاصفة الموعودة..

مرت عطلة الأسبوع، دون أقل تغيير في الطقس. وأمضت مينا يوم الأحد في الحديقة العامة، تقنع نفسها بأن الهواء النقي سيساعدها على الشفاء التام. لكنها عادت إلى الشقة وهي تشعر بفتور الهمة والصداع، فمنذ أن عرفت بأن غايف يحاول الضغط على ميردوك وهي تتساءل عما إذا كان عليها الاستقالة من عملها.. فلديها ما يكفي من مال يقيم بأودها حتى تجد عملاً آخر ولكن مدخراتها لن تدوم أبداً.. وستكون سعيدة الحظ إن وجدت رئيساً متفهماً مرناً مثل ميردوك.

لم تكن قد توصلت حتى صباح الاثنين إلى قرار. أنذرت التوقعات الجوية أن عاصفة جديدة قادمة، ولكنهم منذ أيام يتنبؤون بقدومها وها هي السماء ما تزال زرقاء، اختارت مينا فستاناً خفيفاً بدون أكمام مقلماً باللون الأبيض والوردي وسترة قصيرة الأكمام تضيف لمسة رسمية تناسب العمل في المكتب.

لم يصل ميردوك قبل العاشرة. بدا مشغول الفكر، أما مينا

فشغلت نفسها بالعمل مع أن حدسها ينبئها بشر قادم إنما متى؟!

في تمام الواحدة خرجت لتتناول الغداء في مطعم صغير لأنه نظيف وخدمته سريعة.

عندما عادت كانت الساعة الثانية إلا ربعاً.. أخذت عيناها تعتادان بالتدريج على برودة وهدوء المكتب بعد حرارة الخارج وتوهجه. كان الباب بين مكتبها ومكتب ميردوك مفتوحاً فاستطاعت سماع أصوات من الداخل.. التقطت دفتر المواعيد عابسة فليس ميردوك على موعد مع أحد، فهل يكون ذاك الذي في المكتب معه من الموظفين. فجأة توقف ميردوك عن الكلام ثم سمعت بوضوح شديد غايف يقول بشراسة:

- حسن جداً.. إذن.. لكن قل لي شيئاً واحداً.. هل فسخت خطوبتها حقاً بكارسون إثر عودتها من الكاريبي؟

حركت مينا ساقين واهنتين ثم ارتجف جسمها كله بردة فعل عنيفة.. لماذا يطرح غايف أسئلة عنها؟ هل يفكر في استغلال أمر فسخ الخطوبة لإجبارها على العمل عنده؟

قبل أن تتمكن من صد صوته عنها، ومنع تأثيره في أحاسيسها الهشة الضعيفة، سمعت ميردوك يقول بهدوء:

- هذا، على ما أعتقد، شأن مينا الخاص.

- ولن تسمح لها بالعمل عندي؟

- لن أجبرها على ما لا تريد. وقبل أن تسأل، لا أعرف سبب رفضها كما لا أعرف سبب إصرارك على أن تعمل عندك.

- ألا تعرف السبب؟!!

كانت كلماته مشحونة بعدم تصديق محتقر:

- أعتقد أن من السذاجة السؤال عما ستجنيه من مساندتك لها

هكذا؟

سمعت مينا ميردوك يقول بحدة:

- ماذا تعني؟ اسمع سؤالك وقح جداً لا ساذج.. مينا هي سكرتيرتي وهي فتاة جذابة جداً.. بل هي الآن أكثر جاذبية مما مضى خاصة بعدما تغلبت على عدم الثقة بنفسها بسبب ما غرسته في نفسها عمتها.. لكن، بالنسبة لعلاقة قد يرغب فيها أي منا فأؤكد لك أنني متزوج وأنني سعيد بزواجي. على فكرة مينا فتاة تؤمن بالحب.

لم تنتظر مينا سماع المزيد، فشدت حقيبتها وأسرعت إلى الخارج، غير قادرة على تحمل مواجهة غايف، وإرهابه لها للعودة إلى «كوتسولد».

حين خرجت إلى الشارع، أدركت أن الجو قد تغير، وأن الغيوم السوداء قد تلبدت في الأفق.. قالت لفتاة الاستقبال، إنها ذاهبة إلى المنزل لأنها متوعكة.

وفيما كانت تخف الخطى في الشوارع المزدحمة وصولاً إلى محطة الباصات، سمعت هدير الرعد ورأت الغيوم تتلبد بشكل سريع لا يصدق. وأخذ البرق يومض، وازدادت عتمة بعد الظهر.. ثم فجأة بدأ المطر بالتساقط أولاً ببطء ثم بقوة.

لم تكن العواصف ترهب مينا لكنها لم تكن تجدها جذابة، خاصة وهي لا ترتدي سوى فستان رقيق وسترة رقيقة.. وحين وصلت موقف الباصات كان المطر يتساقط من ملابسها بغزارة وجدت موقف الباصات مهجوراً لأنها للأسف وصلت بعدما غادر الباص بقليل.. أحنت الهزيمة كتفيها، وارتجفت تحت سوط المطر متمنية لو تجد مكاناً تلجأ إليه..

ما هي إلا دقائق حتى تخدرت أصابعها من البرد وكانت في هذه الأثناء تنتظر بلا طائل وصول باص آخر.

كان المطر غزيراً بحيث أنها لم تشاهد السيارة القوية التي تقدمت حتى توقفت أمامها.. انفتح الباب ليطل غايف وهو يقول لها مهدداً:

- أتدخلين طوعاً أم أستخدم القوة؟ لا تحاولي الهرب مينا.. فلست في مزاج يسمح لي بأن أكون لطيفاً معك حين ألحق بك... وأقسم بأن ألحق بك!

تعرف أنه يعني ما يقول، لذا أذعنت لأمره فصعدت السيارة وإن على مضض. كانت المياه تتقطر من ثيابها على المقعد العاجي اللون.

- ماذا... كيف عرفت أين تجدني؟

عرفت سلفاً الرد على سؤالها الأول: «ماذا تفعل هنا».. لذلك طرحت السؤال الثاني الذي أجاب عنه:

- لم يكن الأمر صعباً.. فقد انزعجت فتاة الاستقبال من الطريقة التي هرعت فيها إلى الخارج فجاءت تخبر ميردوك، وهكذا استطعت معرفة وجهتك. أنت تفرين مني كحيوان مذعور؟

لم ترد عليه، بل ظلت تحدق إلى الرصيف ولكن عندما أدركت أنهما لا يتجهان إلى منزلها قالت بذهول:

- إلى أين تأخذني.. أنت تسلك الطريق غير الصحيح!

- وهو طريق سرنا فيه أكثر من مرة مينا.. أنا أصطحبك إلى منزلي لأنني أريد التحدث إليك.

- ليس بيننا ما يقال. لن أعمل عندك حتى ولو كلفني ذلك عملي.

- هل قلت إنني أريد أن تعملي عندي؟

حيّرها السؤال.. إن كان لا يريد أن تعمل عنده فماذا يريد منها إذن؟ إلا إذا كان يريد أن يسخر من انفصالها عن خطيبها.

ارتجفت فجأة، بفعل البرد والخوف، فلامس العبوس عينيه: «أنت غارقة بالماء».

مد يده يدير زراً، فبدأت الحرارة تتدفق إلى السيارة.

- ماذا دهاك حتى تهرعي إلى الخارج بهذه الطريقة. ليس الخوف بالتأكيد؟ فلن تخاف فتاة واجهت الموت بشجاعة.

أرادت أن تصرّح: لا تؤلمني أكثر من هذا! لكنها أطبقت شفتيها بحدة على الكلمات.. لقد أذلّت بما فيه الكفاية.

كانت غارقة في أفكارها إلى درجة لم تلحظ معها أنهما انعطفا عن الطريق الرئيسية ودخلا إلى مرآب تحت الأرض. فسألت ثانية: «إلى أين تأخذني؟»

- قلت لك.. إلى حيث نستطيع الكلام بدون أن يقاطعنا أحد.

أطفأ المحرك، ومد يده إلى ما وراءها يستعيد سترته وقد جعلته حركته هذه يلمس ذراعها المبتلة فانتفض جسمها.

- حسن جداً.. هل تترجلين وحدك أم أحملك؟

كان لكلامه التأثير المنشود.. فتعثرت وهي تترجل ثم ترنحت قليلاً من أثر الصدمة والارتباك. أمسك غايف ذراعها، يجرها نحو مصعد خاص، حملهما بصمت عميق إلى الأعلى.. بعدما توقف المصعد واجههما باب واحد أشار غايف إليه ثم فتحه.

رأت في مدخل الردهة الصغير سجادة ذهبية قاتمة ولوحتين رائعتين عُلّقتا على جدران مفتوحة على غرفة جلوس ضخمة فيها

أبواب زجاجية تطل على المدينة.

من الواضح أن الشقة أوسع من شقة مينا بكثير.. وعت ببؤس مظهرها الأشعث، وثيابها المتقطرة ماء.. نظرت إلى ديكور الغرفة ذات الجدران الرمادية الفضية وذات المقاعد الجلدية السوداء. إنها غرفة لا تظهر سوى في المجلات الراقية، لكن مينا وجدتها مجردة من اللمسات الشخصية، وغير مريحة.

اختفى غايف باتجاه غرفة أخرى، وشهقت حين عاد وبيده منشفة سميكة ناعمة..

قال يأمرها باقتضاب: «هيا جففي نفسك قبل أن تصابي بالمرض».

أسرع إليها يساعدها على تجفيف نفسها بقسوة ووحشية فحاولت إبعاده عنها ولكن بدون جدوى فقد كان مصراً على ما يقوم به وكان يعاملها وكأنها طفلة عاجزة.

لا تدري بالضبط متى تحولّت الحركات العنيفة إلى لمسات مثيرة.. ففي لحظة كانت تقف مرتجفة والكره يسيطر على مشاعرها، وفي التالية أصبح جسمها المتجمد برداً يستجيب للمسته بطريقة غريبة. وراح الدم الذي كان ثلجاً يتنفض فجأة في عروقها حاملاً معه رسالة قديمة كالزمن، عنوانها الحب والحاجة. كان حبها موجوداً في عينيها المشعتين وفي كيانها كله. فجأة توقفت يداه ووقف جامداً، أما هي فلم تعد قادرة على منع الاحتجاجات الخافتة عن فمها.

ـ مينا!

نطق اسمها بصوت أجش يعكس رغبته ثم أردف:

ـ أتريدينني؟

ـ أجل..

بدا أن قدرة ما استطاعت التغلب على تعقلها فتحركت نحوه تضغط أصابعها بخفة على وجهه، وعلى خطوط فكيه وعنقه تتحسس حنجرته وهو يبتلع ريقه بصعوبة، ثم تاهت بانتصار أنثوي حين التفت ذراعاه حولها، ورفعها بينهما.

لماذا لا تأخذ ما قسمته الأقدار لها؟ سيكون هذا أقل مما يكفيها في السنوات القادمة!

قال غايف بعجرفة:

ـ قولي لي إنك تريدينني.. قوليها!

ـ أريدك.

كان هذا إقراراً أجش محطماً. ولكنه لم يرضه فقد أمسك معصميها، وثبتهما ثم أصبحت عيناه بلون الجاد القاتم وكرر السؤال:

ـ لا تقولي هذا فقط، بل أظهريه لي.

كان عليها في هذه اللحظة بالذات العودة إلى رشدها إذ لا يمكنها معانقته بدون أن تفضح حقيقة مشاعرها.

سمعته يحثها بصوت أجش:

ـ أريدك أن تتذكري بعد افتراقنا لحظاتنا معاً كما أريد أن تتذكري طعم عناقي.

أجفلها كلامه الجريء ويبدو أنه شعر بردة فعلها فقست عيناه وأطل منهما سؤال ارتجفت منه حتى قبل أن يطرحه:

ـ متى فسخت خطوبتك؟

ـ أنا..

وضاعت منها الكلمات.. فأكمل:

ـ هل فسخت الخطبة إثر عودتك من الكاريبي؟ لا تكذبي عليّ مينا.. أعرف ما حصل.. أترين.. لقد راسلتني بيني هولاند وقد شملت رسالتها وقائع أثارتني منها ما هو متعلق بفسخ خطوبتك. لماذا تركتني أعتقد أن الخطوبة ما تزال قائمة؟

حاولت مينا أن تهز كتفيها بلا اكتراث، أرادت النهوض والهرب بعيداً، ولكنه ثبّتها حيث هي..

ـ أنت تحبينني.. أليس كذلك؟

ـ لم أشأ إخطارك بفسخ الخطوبة لئلا تظنني أرغب في فرض نفسي عليك.

ـ وأنت لا تريدين هذا؟

اغرورقت عيناها بالدمع، وهزت رأسها موافقة.. فأكمل:

ـ وهكذا، أسأت فهم الموقف.. كما أسأت فهم أمور كثيرة كاعتقادي بأنك فتاة عابثة.

ـ لم أكن قطُّ عابثة بل كنت أتجنب الرجال الذين يرغبون في.. أترى! عمتي التي ربتني علمتني أن الفتيات الطيبات لا يفكرن في هذه الأمور.

ـ لا بأس عليك.. فهمت الصورة.. لذلك كنت سعيدة مع كارسون قانعة بالزواج به حتى بدون رغبة أو حب.

تورد وجه مينا لصراحته ولكنها لم تستطع نكران ما قال.. ثم قال أخيراً بعد صمت طويل:

ـ إذن.. أين يتركنا هذا؟

نظرت إليه متوترة: «لا تقلق لن أفرض عليك حبي».

ـ مينا.. اصغي إليّ.

أمسك بوجهها بين يديه، وأجبر عينيها المرتبكتين

المغرورقتين بالألم على الالتقاء بعينيه:

ـ إن آخر ما أرغب فيه هو إيلامك.. يا الله.. ألا تعلمين ما تفعلينه بي عندما تكونين بين ذراعي؟.

تمالك نفسه ثم أردف بهدوء:

ـ أنت تعرفين سبب وجودي في سانت ستيفان.. كنت أحاول التخلص من عقدة ما أصابني في أفريقيا. وكان آخر ما أريد أن تبدد راحة نفسي مخلوقة ترتدي ثوب بحر مثيراً أبرز جمالها الذي كاد يدفعني إلى الجنون، مخلوقة تعد عيناها ببراءة ممزوجة بإغواء حواء.. لذلك قلت لنفسي إنك تتعمدين اصطيادي، وأخذت أقنع نفسي بهذا متجاهلاً الدلائل التي تشير إلى عكس ذلك. وعندما أسرنا قلت لنفسي ثانية إن على الأمور ألا تتغير وأوهمت نفسي بأن ما أشعر به نحوك هو نتيجة تقاربنا. لكن هذا التقارب، مهما كان مؤثراً، لن يدفع رجلاً لقتل رجل آخر لمجرد أنه نظر إلى امرأة.. أتذكرين ساعة هروبنا من الكهف؟

ارتجفت مينا: «أجل.. ذلك الرجل..»

ـ كنت أعرف أن تلك وسيلتنا الوحيدة للهرب. لكنك لم تعرفي ما كلفني إجبارك على تمثيل الدور، أظنني عرفت ساعتئذ مدى براءتك بل عرفت أنني وقعت في حبك.. ولكنني مع ذلك لم أعترف بهذا وعوضاً من الاعتراف بحبك عاقبتك على جرأتك في اقتحام دفاعاتي غير أن تصرفاتي لم تكن مقصودة حتى حين وصل بنا الأمر إلى حدود الاستسلام...

لاحظ تورد وجهها فابتسم:

ـ إنها ليست بذكرى سعيدة لكلينا، لقد كره جزء مني طريقة تصرفي معك أما الجزء الآخر فقد كافح لتبرير تصرفي بالإصرار

على أنك كنت خبيثة تستغلين طهارتك كورقة رابحة. وظننت أنني تجاوزت تأثيرك بعدما غادرت الكاريبي.. لقد كان رحيلي عملاً جباناً ولكنني خشيت أن أخضع لمشاعري فأطلب منك الزواج متوسلاً، ثم ظهرت لي في منزل كيكورد.. وكادت الصدمة تخرجني عن طوري خاصة عندما عرفت أنك خطية ابنهم.

قالت مينا برقة:

- فسخت الخطوبة حالما وصلنا إلى المنزل، لكنه أقنعني بالتظاهر بأنني خطيبته حتى نهاية الأسبوع فقط.. فهو لم يرغب في إفساد خطط عطلة أبويه.

- وكانت النتيجة أنه اكتشف وجودي في غرفتك.. ومن المؤسف أنه لم يعرف ما كان سيجري بيننا لولا وصوله، فلو جرى ما كنت أنويه لما تركتك، ولتجنبنا هذه الأسابيع من البؤس والعذاب.. بعد تلك العطلة واجهت الحقيقة.. وعرفت أنني أحبك فعلاً. ظننتك مخطوبة لكارسون، لكنني أقنعت نفسي بأنه من الممكن فسخ الخطوبة وقد فكرت في أن أقول له إنك كدت تستسلمين لي. ثم جئت مع ميردوك إلى ذلك الغداء المشؤوم.. واكتشفت أنني لا أعرف ما يجب أن أفعل: أأقتلك؟ أم أقتل كارسون أم أقتل نفسي؟

اعترفت له مينا: «خشيت أن تعرف حقيقة مشاعري وكان أن تركتك واهماً بأنه خطيبي».

- لم يغير شيئاً حتى ظني أنك ما زلت خطيبته وحتى أغيّر مشاعري نحوك أجبرتك على العمل عندي، ولكن وجودك قريبة مني ومع ذلك بعيدة عني، كاد يفقدني صوابي. أردت معاقبتك حتى تتوسلي إليّ أو حتى تعترفي بأن كارسون لا يعني لك شيئاً..

بعد ظهر ذلك اليوم، عندما عدت فوجدتك نائمة من الإرهاق..

اعترفت مرة أخرى بهمس:

- أردت منك أن تضمني وتعانقني.. ولكنني كنت خائفة أن أفضح ما أشعر به نحوك.. ثم هناك ريبيكا..

هز كتفيه: «إنها صديقة قديمة، لا أنكر أنني استغليتها على أمل أن أجعلك تغارين».

- ولقد نجحت في هذا.

- كدت أخنق كارسون حين ترك ذلك الجواد المتوحش يهاجمك.. وددت لو أسأله ما إذا كان يهتم بك أم لا.

- وخفت أنا أن تقول له شيئاً وما أشد ما كان امتناني لظهور ميردوك.

- أجل.. لاحظت هذا.

أنّبته مينا: «ليس عدلاً تجاوزه وتقديم شكوى ضده في مجلس الإدارة».

- أنا رجل مغرم. وهل للعدل يد في مثل هذه الأمور.. عندما تلقيت رسالة بيني لم أصدّق عيني.. فقد سألتني عن رأيي بمسألة فسخ الخطوبة.

- سمعتك تسأل ميردوك عن هذا ثم خشيت أن تعرف ذلك ثم تستنتج حقيقة مشاعري.

- لو عرفت ذلك لأدركت وقوعك في حبي.

- غايف انس أنني أحبك لأنني أرفض أن أفرض عليك حباً لا تريده.

- مينا.. هل لديك فكرة عما شعرت به بعدما عرفت أنك فسخت خطوبتك من أجلي وبعدما عرفت أنك واقعة في حبي؟ يا

الله! ألا تدركين أنني واقع في حبك حتى أذني؟ ألا تدركين أن قلبي يختلج لمجرد رؤيتك وأن روحي تحلق عالياً بمجرد احتضانك هكذا بين ذراعي. ولكنني آسف أشد الأسف لأنني آلمتك..

ـ أردتك، وأحببتك حباً لم أعد أهتم معه حتى بالألم.

تمتم ببطء: «أنت لي.. لكن أتدركين أن زواجنا سيثير في المنطقة بعض الأقاويل؟»

ـ كثير من الأحبة يبقون أحبة بدون زواج هذه الأيام..

ـ لكننا لن نكون منهم.. ما أعنيه، أن زواجنا سيكون موضوع كلام الجيران، خاصة أنك كنت حتى أيام خطيبة كارسون.

ـ لا أعبأ بكلام الناس بل جلّ ما يهمني أن أحمل يوماً طفلك.

ـ ومن قال إنني أرضى بطفل واحد.

ردت مازحة: «ومن قال إنني أرضى بالزواج بك؟»

ارتدَّ قليلاً وقد اسودت عيناه.

ـ لن تجرؤي على عدم القبول. لأنني أريدك زوجة، وأماً لأطفالي وأرفض كل الرفض أن تكوني امرأة تشاركني السرير فقط. أريد كل شيء أو لا شيء.. فماذا تختارين؟

أعطته ذراعاها المفتوحتان وعيناها المشعتان الرد، فالتفت ذراعاه حولها، واستجابت له ولحبه الذي اشتاقت إليه، وعرفت للمرة الأولى ما يعنيه الحب.

* * *